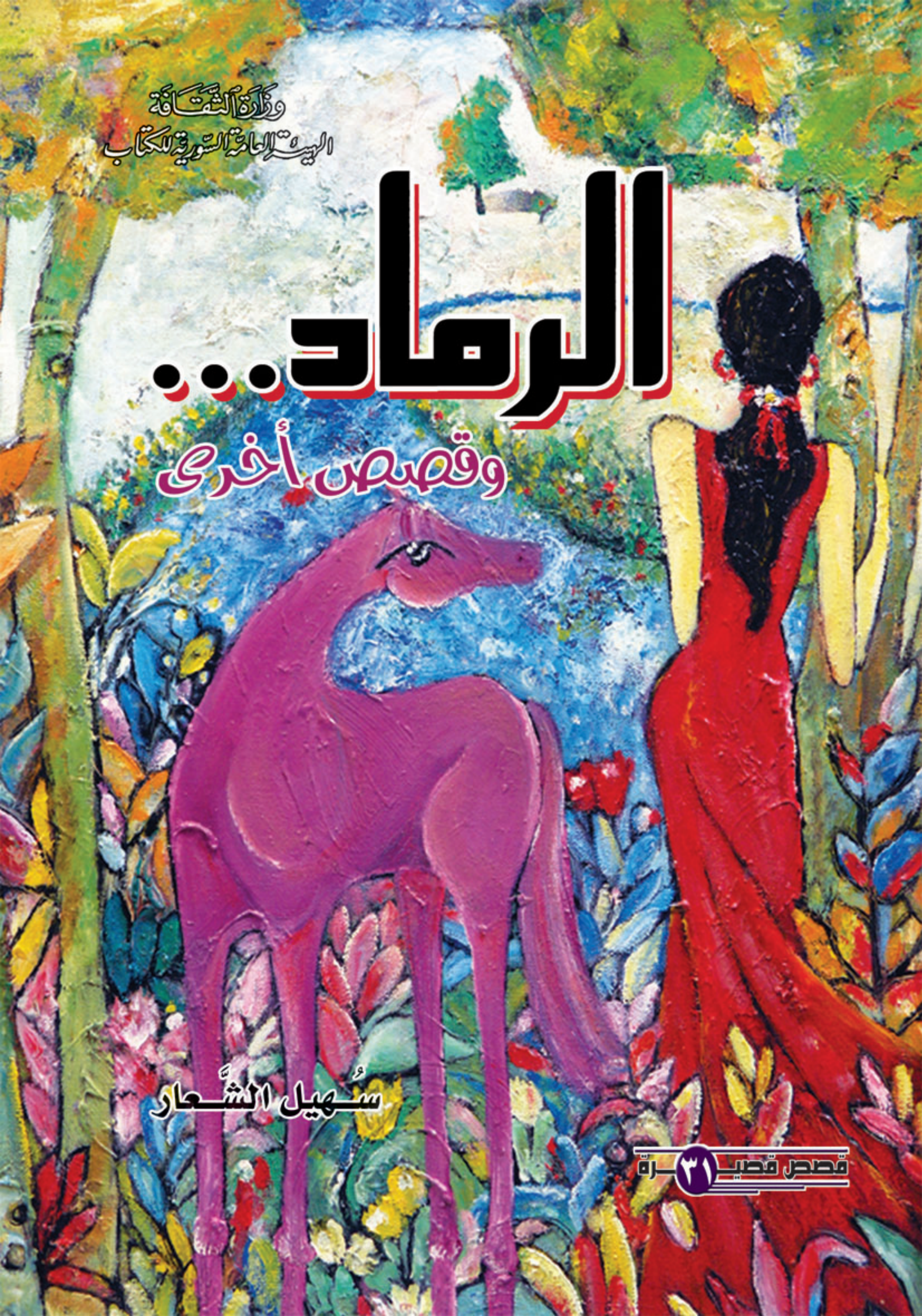
وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

الرماد...

وقصص أخرى

سُهيل الشَّعار

قصص قصيرة ٣١



الرّماد..
وقصص أخرى

تصميم الغلاف:
للفنانة ضحى الخطيب

سُهيل الشَّعار

الرّمــاد ..

وقصص أخرى

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٢م

الرماد وقصص أخرى / سهيل الشعار . - دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٢م . - ١٢٨ص؛ ٢٠ سم.

(قصص قصيرة؛ ٣١)

١ - ٨١٣,٠١ ش ع ا ر ٢ - العنوان

٣ - الشعار ٤ - السلسلة

مكتبة الأسد

قصص قصيرة

«٣١»

عيشة ضيّقة

بدأت الغرفة تضيق كلما كبرنا ...

يعمل والدي حارساً ليلياً لإحدى الحدائق القريبة من مدرستي، والحديقة كانت فيما مضى، دون حارس، وقد ارتأت البلدية تعيين حارس لها بسبب وجود بعض مقتنيات المجلس البلدي بداخلها (أثاث قديم، محركات ديزل، عربات مصادرة عن الأرصفة والشوارع ..).

لم نعد نرى والدي إلاّ نادراً، وإذا اشتعلت في داخله رغبة الأبوة، كان يمرّ عليّ في المدرسة، يطلبني إلى الإدارة، يقبّلني، وأحياناً كان يحضر لي بعض الفطائر من جبنة وزعتر.

صارت حياتي متناقضة في لقائي به، هو يذهب وأنا أجيء.. أنا أنام وهو يستيقظ.. حياتي لا تلتقي بحياته إلاّ قليلاً..

وأحياناً لا أراه في الأسبوع مرة، أو في الشهر مرة واحدة، كالقمر الذي لا يكتمل إلاّ لمرة واحدة فقط خلال شهر واحد، أيامي أصبحت كالعتمة، حين يحضر نهار والدي أغيبُ... وفي بعض الليالي العاصفة كان يحضرُ إلى المنزل خلسة، يضيء الغرفة ويوقظنا، يقبّلنا وهو يقول: عندما تكبرين لن تسمحي لي ولأمكِ أن نقبّلك كثيراً، أنتِ وهذا الفصعون...

وكان يشير إلى الفصعون، يأخذه بين ذراعيه ويبدأ بتقبيله على عينيه ووجهه ورقبته.. فيتذمّر أخي الصغير الذي لم يتجاوز بعد الخامسة من العمر والورد، يتثاءب محاولاً إبعاد كومة الشوك تلك عن وجهه..

أما أنا فمحاولاتي تذهب وتذوب كقطعة سكر في الماء حيث كانت والدتي تحدّق بي وتعبس، فابتلع تذمّري

وانزعاجي، وعلى رائحة التبغ نشرب الـشاي معـاً، مـع بعـض السّعال..

هكذا هي حياتي مذ ولدت.. ضيقة كما تقـول ابنـة جيراننـا، كملابسها، ومُرّة كغصّات أمي، والتي تكـاد تخنقنـا يومـاً بعـد يوم.

كل شيء في الغرفة نفسها.. الطبخ ورائحة الـدخان وشرب الشاي.. والنوم والغسيل واستقبال الضيوف..

ورغم ضجري وكـآبتي، كنـت أجـد أحيانـاً بعـض العـزاء والفسحة لألعب مع أخي الصغير... وقلّت كآبتي، وانخفـض ضجري، حين أحضر لنا والدي ذات يـوم لعبـة أعطـاه إياهـا أحدهم بعد أن حمـل لـه أبي كثـيراً مـن الأغـراض إلى الطـابق السادس في البناء القريب من الحديقـة... غـسلت أمـي اللعبـة ونظّفتها جيداً، صنعت لها ملابـس أنيقـة، وقبعـة مـن القـش، فبدت جديدة، زاهية...

إذا زارنا أحد ما، كانت أمي تقسم الغرفة ببطانية، نلعب مع ضيوفنا الصغار في قسمها الخلفي الرطب، ونترك القسم الآخر للكبار، ليشربوا المتّة والشاي، ويتحدّثوا على راحتهم...

ثم.. ذات يوم، أخبرنا والدي أنه يستطيع أن يبقى معنا كل يوم سبت... فرحنا... وبدأنا نعوِّض ما فاتنا من لعب معه، وشيطنة على أكتافه... ويوم السبت الماضي كانت عطلته أيضاً.. شربنا الشاي معه، وتشمّمنا كالعادة رائحة دخانه... وعند العاشرة اقترحت أمي أن يأخذ أبي أخي الصغير إلى الحديقة، بينما أبقى أنا معها لنحضّر الغداء...

فجأة... تغيّرت ملامح أمي، وشحب لون وجهها وامتقع... أحسست بذلك وخفت أن أسألها...

ومع ارتفاع الشمس في السماء.. كانت أمي تزداد همّاً ويكبر قلقها ككرة ثلج تتدحرج.

- أأنتِ مريضة؟؟!! تجرّأت وسألتها... بقيت صامتة... ثم رأيت دمعتين كبيرتين تموجان داخل عينيها...

وبقلق زائد وارتباك، ارتدت ثيابها على عجل، أغلقت باب غرفتنا الوحيدة، أمسكتني من يدي وانطلقت... سألتها مستغربة:

إلى أين؟؟!!

... تمتمت بشيء ما غير مفهوم... فعدت لأسأل:

أمي... إلى أين سنذهب.. ألا تريدين إكمال صنع الغداء؟؟!

رأيت الدمعتين تسيلان، وبقيت أمي مكبوتة، وشيء ما بداخلها ينتظر الانفجار.. لم أكن لأصدّق أن لقلب الأم عين أخرى ترى من خلالها وتحس، وأحياناً تتلمّس الأحداث وتتيقّن من وقوعها.

بين ليلة وضحاها اشترينا منزلاً جديداً، له نوافذ وشرفة كبيرة.. انتقلنا إليه، ولم نتعذّب أبداً في حمل أثاثنا البسيط... إنما حِمل أمي الداخلي كان ثقيلاً.. ثقيلاً جداً.. وأثقل مما يتحمّله

القلب... اتسع المكان، لكن الصدر ضاق، حوالي ستمئة ألـف ليرة، كان ثمن موت أخي الصغير في صباح ذاك السبت تحـت عجلات سوداء لشاحنة كبيرة.

* * *

العريس

اسمي ميمونة..

عُمري ثلاثونَ عاماً من الانتظار، وبالأمس كانت خطوبتي، تبعني ذاك الرجل لعدة شهور، أو ربما لعدة سنوات، لم يضايقني بشيء، أو يسيء بكلمة، أو يجرحني بنظرة.

كنت دائماً حين أخرجُ من منزلي، أشعر أنه يتبعني بعينيه الكبيرتين الشهلاوَين الحزينتين، وبخطواته المهذّبة، المتّزنة.

ورغم أنني كنت متأكّدة من أنه سوف يكلّمني ذات يوم، بيد أنه لم يفعل.

أصبحت أحلمُ به...

وأتمنّى في الحلم أن أسمع صوته، أو أصغي لأية كلمة تصدر عنه، حتى ولو كانت موجّهة لغيري.

وعلى مـدى أشـهر عديـدة، صـار هـذا الرجـل جـزءاً مـن تفكيري، وقطعـة مـن روحـي، وإذا لم أره في الأسـبوع ثـلاث مرات كنت أَضْـجَرُ، وأغـضب عـلى مَـن حـولي مـن دون أيـة أسباب واضحة، وأحياناً أمرضُ وأُنقل إلى المشفى.

أوجد ذاك الضوء الجميل أضـواء زاهيـة في داخـلي، وعالمـاً راحت ترُفرف ُ فيه فراشـاتٌ خـضراء وطيـور ملونـةٌ، ونجـوم زرقاء تشعّ في حياتي كلَّ يومٍ.

ولم أخبر أحداً بما يعتمـل في داخـلي ويغـلي، ولم أطلـب مـن أحد أن يجمع لي أية معلومـاتٍ عنـه.. كنـت سـعيدة بمـرضي، مسرورة بعذابي، ومغتبطة بوجـودي داخـل هـذه المدينـة التـي سكنها ذاك الذي منحني أحاسـيس جديـدة، وعينـاً ثالثـة أرى من خلالها الأشياء بحب وفرح..

لم أكن أعرف فيما مضى أنّ القلب يمكنه أن يلتـصق بـالآخر إذا أحبّه، وأنّ الروح لا تنام حين تعشق، وأن الجسد تنمو عـلى

أطرافه أجنحةٌ، ويصبح مُستعدّاً دائماً للطيران حين يرى مَن يُحبّ.

خطوبتي بالأمس لم تغيّر أو تحدّ من تعلّقي بذاك الطّيف الساحر، كل شيء سارَ على ما يرام.. وقد وافقت على خطيبي الجديد بسرعة أدهشت أهلي، وصعقت زميلاتي، حين كنتُ - حتى وقتٍ قريبٍ جداً - قد طلبني للخطوبة أكثر من رجل ورفضتُ.

وافقت وكُلّي ثقة وأمل، من أنني وخطيبي الجديد سوف نتفاهم على كل شيء، وسوف تكون لغتنا مختلفة عن لغة الآخرين، لغةٌ عاليةٌ ورمزيةٌ، ورفيعةُ المقام، لغةٌ تفهمها الروح قبل العقل، ويراها القلب قبل العين.

- ٢ -

بينما كنت أحضّر نفسي أمام المرآة.. دخلت أختي الصغيرة وصاحت:

ميمونة .. جاءَ العريس .. جاءَ العريس .

كنت أعرف أن عريساً ما سيأتي لخطوبتي هـذه الليلـة، كـما في ليالٍ أخـرى مـضت، لكنني لم أكـن أتوقّـع أبـداً أن يكـون هو .. هو بالذّات، الرجل الأخرس الذي أحببت !!

* * *

الكنـــز

جميلٌ .. وساحرٌ ..

كحُلم فتاة بفارس أحلامها ..

وكنجمة لا تملُّ البريق، وكشمس صغيرة تدفّئ الأجسام الباردة دون أن تحرقها.

مزروعٌ بالصّدف .. ومُطرّزٌ بحباتٍ ناعمة، ملساء، من حصى بحيرة الهضبة، ويبدو كوجه طيّب لطيف ينظر إلينا بعُيونه الصّدفية، وينتظر.

كانت أمي العجوز مُتعلّقةً به، كولدٍ من أولادها، تحتضنه في كل مساء، وتطمئنُّ بنظراتها الحزينة إلى ما بداخله من كنوز ..

وفي غفلة عنّا، ربّما كانت تُضيف إليه أشياء وأشياء دونما أن نراها ..

لم يحدث أبداً وأن نظرنا إلى داخلـه، كانـت تُراودنـا أحـلامٌ وردية على شكل غيوم بيضاء، تحملنا بعيـداً في الـسماء، وفـوق الحقول والجبال، لكنّني مع أخي الصغير، كنتُ متأكّداً من أنـه يُخبئ لنا ثروةً سوف تُعيننا إلى ولد الولد، ثروة لا تُقـدّر بـثمن، إذا عرفنا كيف نتصرّف بها.

هكذا كانت تُخبرنا العجوز في الأمسيات..

وكانت أحلامنا تكبر وتتّسع.. لتحوّل ما في ذاك الـصندوق الخشبي العتيق إلى واقعٍ جميل يمشي ويتكلّم بذاك الكنـز الـذي تقول أمي عنه إنه سيرفعنا عالياً، وسيجعل مـن سـمعتنا طيّبـة مدى الحياة.

بذاك الكنز، لا شـك أنـني سـوف أعـوّض مـا فـاتني مـن مسرّات وأفراح...

أمّا أخي الصغير، فقد كانت أحلامه صغيرة كعُمره..

كان يخـبرني سرّاً أنّـه سيـشتري درّاجـة لـه، ودراجـة لابـن جيراننا مُهنَّد، وسوف يتسابقان في كل مساء..

أحلامٌ كثيرة كانت تُراودنا..

يُقابلها تحفّظ أمي على الكنز، وعلى عدم التّصريح لنا بقيمته الحقيقية، لكنها، من جهة أخرى، ومن باب الاطمئنـان كانـت تقول لنا :

إنه يزداد قيمة مع الزمن ويكبر .

إذاً أمـي لا تـزال تجمـع المـال وتخزّنـه خفيـةً عنّـا داخـل الصندوق !

ولكن من أين لها ذلك؟ !

أيعقلُ أن تجمع من فُتاتاتٍ قليلـة تُزوّدنـا بهـا الوكالـة، ذاك الكنز الكبير؟ !

ولِمَ لا؟ ! ألم تقل الحكمة القديمة :

نقطةٌ فوق نقطة يتكوّن غدير؟ !

- ٢ -

إلى أن جاء ذاك اليوم . . اليوم الذي لا بُدّ منه لكلّ واحدٍ منّا .

جمعتنا حولها، ضمّتني إليهـا مـع أخـي الـصغير كعـصفور يحتضن صغاره للمرّة الأخيرة..

كـان الـصندوق ينظـر إلينـا حزينـاً عـلى والـدتي، ويـستعدّ للانفجار في وجوهنا دون صوت، فيحرِقُنـا دون أن يُحوّلنـا إلى رماد.

همست والدتي مشيرةً بيدها إليه:

احتفظوا به يا أولاد من بعدي، هذا كل ما بقي لنا.

في نفسي امتعضّتُ وتكدّرَتْ جوارحي، كيـف يمكـن لهـذا الكنز الذي جمعتـه طـوال حياتهـا أن نحفظـه مـرّة أخـرى، ألا يكفي أنها حرمتنا منه عشرات السنين؟!

ثـم إن الكنـز وجُـد ليُـصرف منـه، كـما أن الغيـوم تتجمّـع لتُمطر، والنجوم لتلتمع، والشمس لتشرق، والماء ليُشرب.

تماسكتُ.. ثم هززت برأسي:

لا عليكِ.. المهم أن تتحسّني الآن يـا أمـي، وتنهـضي بخـير وسلامة، قاتل الله المال وساعته، صحّتك أهمّ.

ابتسمتْ .. أو كادتْ تبكي، منّا أو علينا، اختلطت في عينـي ملامحها المتعبة، والبائسة، فاقتربتُ منها :

سوف أحضر لك الطبيب، يبدو أن حالتكِ ستسوء .

كأنّها كانت تنتظر منّي ذلك .. بدأتْ تـسعل وتـشهق مختنقـةً بأنفاسها وبحسراتها المزمنة ..

خرجتُ مُسرعاً .. لأعود مع الطبيب بعد قليل .

كان أخي يجلس إلى جانبها، وعينـاه تـصرخان مـن الفـزع، ويرتجف جسده الطري كسمكة جفّ النهرُ من حولها .

كئيبةٌ كانت ليلتنا تلك، انطفأت فيها النجوم، وتلاشى القمر واختفى من السماء، كل ما حولنا بدا ميّتاً وهادئاً كجثّة أمي .

في اليوم التالي دفنّاها في المقبرة القريبة من مُخيّمنا، وظلّ أخي يبكي حولنا ويصرخ كفرخ بطٍّ صغير، طالباً الـذهاب معهـا .. فكنتُ أُهدِئهُ بقولي :

لا تبكـي، يجـب أن تفـرح لأن أُمّنـا ذهبـت إلى الـسماء، لا تبكي، البكاء حرام، وإذا سمِعتكَ سوف تزعل منك .

فيـصمت قلـيلاً مُـستغرباً كلامـي وهـدوئي، وتماسـك أعصابي.. لكنه.. وفجـأةً، كـصوت رعـدٍ غـير متوقّـعٍ، يعـود لينفجر بالبكاء..

في طريق عودتنا، أخبرته أنّه صار بإمكانه شراء الدراجة لـه ولابن جيراننا.. كما أنني سأشتري أنا أيضاً أشياء كثيرة كنتُ قد حلمتُ بها ودفنتها في قلبي منذ وُلدت.

- ٣ -

إنه بانتظارنا..

أم تُرانا نحن الذين انتظرناه طويلاً؟!

أغلقنا الباب، وأنزلنا السّتارة الوحيـدة، كأننـا عروسـان في ليلتهما الأولى، أو لِصّان سيقتسمان الغنيمة.

جلـس أخـي بعيـداً في الزاويـة، بيـنما رحـتُ أبحـثُ تحـت اللُحف والبطانيات والفُرش عن مفتاح الصندوق...

طال بحثي.. واكتأبتُ قليلاً..

قال أخي:

رُبّما أمي أخذت المفتاح معها، ألم تكن تُعلّقه في ثيابها دائماً؟!

غصصتُ حين تذكّرتُ ذلك، ولا أدري حينها إن كنتُ قد ابتلعتُ غصّتي، أم هي التي ابتعلتني؟!

وللحظة مرعبة راودني إحساسٌ قوي بالعودة إلى المقبرة.. شاورتُ أخي:

أتعود معي إلى المقبرة لنفتح القبر ونُحضِر المفتاح؟

ارتعب الصغير ولم يُجب، حدّق في وجهي غير مُصدّق أن من يحكي هذا الكلام هو أنا، امتلأت عيناه بدموعٍ مالحة كادتْ تنهمر لولا سؤالي الآخر:

حَسَناً.. ما رأْيُكَ أن نخلعه؟

هزّ رأسه مُوافقاً..

بإزميل كبير حاولتُ فتحه..

كان مُحكم الإغلاق كتابوتٍ من حجر.

وبعد مُحاولاتٍ كثيرة انخلع القفل مُصدراً صوتاً لا يشبه في أنينه إلاّ وجع أمي المُزمن.

وبيد واثقةٍ مطمئنّة رفعتُ الغطاء.. رفعته حتى اتكأ ظهره على الحائط.

كانت غصّتي هذه المرة أعمق..

حرقت روحي قبل أي شيء آخر.

حاولتُ ابتلاعها فابتلعتني..

حاولتُ إطفائها فازدادت اشتعالاً..

ولم أعد أفهم تماماً ما يحدث في داخلي..

قرفصتُ ورحتُ أبكي وأنتحب..

وسمعتُ من الزاوية نشيج أخي يعلو.. ويعلو..

كان هُنالك في زاوية من زوايا الصندوق العتيق، مفتاحٌ كبيرٌ صدِئٌ لبابٍ كُنّا قد هجرناه عنوةٌ منذ أكثر من أربعين عاماً، وإلى جانبه، وفوق خُرقة بالية، تكوّمت حفنة من تراب هضبتنا البعيدة.

* * *

النَّدْبَــةُ

لا أحد يعرف تماماً كيف جاء، ومن أين ...

وجده الأولاد في ساحة الضّيعة صبيحة يوم العيد، وكان معه كلب بني دائم الحركة والنشاط .

فرح الأطفال به، ولعبوا مع كلبه الودود، وعند الظهيرة طلب الغريب طعاماً، فأحضر له بعض الصبية رغيف خبز وبيضة مسلوقة .

جلس الغريب في زاوية من زوايا الساحة، قسم رغيف الخبز ورمى بقطعة منه إلى كلبه قشر البيضة ولفّ عليها قطعة الخبز وشرع بأكلها ..

كان اسمه حسني النّعسان .

في مُقتبل العمر، طويل الشعر، قصير الرجلين، بشرته بلون القمح، وعيناه صغيرتان كعيني فأر .

طلية أيام العيد بقي حسني مع كلبه في ساحة الضيعة، يلعب مع الأطفال الذين أحبّوه وتعلّقوا بكلبه المحبّ لصاحبه، وكان ينام في خربة قريبة من الساحة، غطاؤه عباءة رثّة من صوف الغنم، ميزتها أنها كانت كبيرة تتّسع لحسني وكلبه.

في اليوم الثالث من وجود حسني في الضيعة، مات رشدي الزعلان، راعي الماشية العجوز، وهكذا أحضر الأولاد حسني وكلبه إلى المختار الذي أُعجب بهيئة حسني وصفاته، فأسند له رعي أغنام الضيعة، والاهتمام بها.

أثبت حسني جدارته، وارتفع شأنه في نظر أهل الضيعة لأمانته وحسن أخلاقه، ولم يعد يهّم المختار من أين جاء حسني وكلبه، فقد أثبت الغريب نسبه في أعماله، وكمال أدبه.

وبدأت الثّياب والأكلات الطيّبة تنهال على حسني الذي اكتفى بالقليل القليل من كل ما كان يأتيه، ويتصدّق بالباقي على الفقراء والمحتاجين...

- ٢ -

في منتصف كانون الثاني، عادت الماشية وحيدة إلى الضيعة، وعند الغسق وجد بعض الصيادين حسني يئن ويتوّجع قرب شجرة أحرقها البرق.

حملوه إلى الضيعة، وبرفقتهم كلبه الودود، والذي لم يفارق صاحبه لحظة واحدة.

كان حسني مصاباً بحروق كثيرة في جسده ووجهه ويديه، ويبدو أن برقاً ما أو شهاباً من السماء قد أصابه، لكنه نجا من الموت حرقاً بصعوبة.

أسبوع كامل قضاها حسني في الفراش...

وفي بداية الأسبوع الثاني طلب العودة إلى قطيعه، وبعد أن اطمأن المختار على حالته سمح له أن يعود إلى عمله..

الشيء الذي بقي من البرق الذي أصاب حسني ندبة عريضة بلون الزّمرد، كانت تشعّ بلون أخضر في العتمة فوق جبهة حسني.

ملأ خبر ذاك الضوء الغريب كل الضيعة، فشرع الناس مـن مختلف الأعمار يتوافدون على غرفة حسني في الليل لـيروا تلـك الندبة الخضراء.

وكان حسني يستقبل الجميع بفرح، ويتقاسم معهم كـل مـا يملك من طعام.

- ٣ -

في الربيع، حضر أناس كثر إلى تلـك الـضيعة لتـصوير عـدة لقطات من مسلسل تلفزيـوني، وقـد لفـت نظـر المخـرج ندبـة حسني وضوءها الجميل!

فطلب المخرج من حسني المجيء إليـه في المدينـة، لتـصوير شيء مـا عـن تلـك الندبـة العجيبـة، وأعطـاه أرقـام هواتـف وعناوين..

لكن حسني رمى تلك الأوراق ولم يكـترث، فعـاد المخـرج بعد أسبوع وانتظر حسني لحين عودته من البريّة.

وهكذا، وتحت إصرار المخرج وطلبه الملح، وافق حسني على الذهاب معه إلى المدينة لعدة أيام.

وفي ليلة وضحاها صار حسني نجماً..

عُرض الفلم القصير الذي شارك فيه حسني النعسان في أكثر من بلد، ولاقى نجاحاً واسعاً، وظلّ حسني ودوداً، متعاوناً، يتحّدث بلطف، ويشرح أحياناً للصحفيين وأجهزة الإعلام كيف حصل على تلك الندبة من السماء.

تشجّع الكثير من الشبان والرجال، والمهتمات من النساء لمواجهة البرق وشهب السماء، لعلهم يُصيبون شهرة كالتي جاءت لحسني.

في الشتاء كان البرق يحدث في كل ليلة تقريباً، لكنه كان يتخطّى الجميع ليضرب الأرض والشجر ومَن كان يصيبه البرق يتحوّل إلى فحمة سوداء.

وبالرغم من ذلك، ظل بعض الناس يخاطرون بحياتهم، ويصعدون الجبال، ويدخلون الغابات، باحثين عن برق

يصيب أجسادهم، ويترك فيها ما يجعلهم مشهورين كحسني النعسان، من غير أن يحوّلهم نار البرق إلى لحم محترق وعظم متفحّم.

ولكن هيهات ذلك... فالمعجزات لا تحصل إلاّ نادراً، ولأفراد قلّة محظوظين.

* * *

بهمنا سمعتكِ...

أحلق ذقني مرتين في الأسبوع، وأدهن حذائي البالي القديم كل يوم تقريباً، وأستحم مرتين كل أسبوع في فصل الصيف، ومرة واحدة فقط طيلة فصل الشتاء البارد.

قطّتنا «ورد الشام» تتغيّب كثيراً عن المنزل هذه الأيام، ولسبب ما أتذكّرُ جارتنا الحلوة، الأرملة السمينة، هي أيضاً تتأخّر في العودة إلى منزلها، وأحياناً تنام خارج البيت.

منذ أيام قليلة اكتشفتُ السّر - سر تأخّر قطتنا العزيزة - السيدة ورد الشام، وعرفتُ من خلال تحركاتها، ومن نظراتها الناعسة أنها عاشقة.

أخبرت والدتي العجوز عن هذا الموضوع، فتّجهم وجهها وقالت بغضب ولوم:

«يا سلام، جارتنا صار لها رفاق، يا سلام، سوف أقصف رقبتها عندما تعود».

- ٢ -

ترتجف أوراق الأشجار القريبة من حارتنا كقلوب العاشقين، أنه شهر شباط.. ها هي النوافذ والأبواب ترتجف أيضاً وتهتزّ.. ويرتعش «محسوبكم» حين يتذكّر حبيبته.

أقرأ في اليوم خمس ساعات.... وأعرف تماماً أن هذه «الشغلة» لا تُطعم خبزاً، كما أنني أكتب كل شهر تقريباً قصة لا تجد طريقها إلى النشر إلاّ بصعوبة، وأحياناً كثيرة تعتذر المشرفة على الصفحة الثقافية عن نشر قصتي لأسباب تتعلّق بأهداف الصحيفة وأولويات نشر مواد العاملين فيها قبل أي شيء آخر.

موضوع قطتنا « ورد الشام » شغل بالي بصراحة، وسوف أنسج قصة حولها وأقرؤها على أسماعها، لعلها تتوب وتتّعظ.

وسـوف أذكـر في حيثيّـات القـصة أهميـة العـودة بـاكراً إلى المنزل، خصوصاً إذا كان العائد فتاة، أو قطة مُطلّقة لأن ألـسنة الناس كالمناشير، لا ترحم، أنها طويلة وحادة، ونحن نمشي إلى جانب الحائط ونقول يا ربّ السّترة.

- ٣ -

أحب أصدقائي على اختلاف أفكارهم وأمزجتهم.. وأتمنّـى الخير والسعادة لهم.. كما أنني لا أنسى أبداً تمنّياتي لجيراننـا بـأن يمنحهم الله ويرزقهم كثيراً من الخير بما في ذلك الخبز والبطاطا واللبن.

عادت ورد الشام متأخّرة هذه الليلة.. ثم تناهى إلى سـمعي سيارة ما تتوّقف..

ومـن النافـذة الـصغيرة رأيـتُ جارتنـا الحلـوة، نظـرتُ إلى الساعة المعلّقة، كانت تشير إلى الثالثة بعد منتصف ليـل مـاطر، دخلت ورد الشام، كانت متعبة، «ومدعوكة».

وفي عينيها تشّع سـعادة عميقـة... طبعـاً يـا أخـي، الآنـسة فرحانة، ومبسوطة، الله يعطيها العافية.

قلتُ: الحمد الله على السلامة يا آنسة... بكّير.

نظرت إليّ بعدم مبالاة ولم تجبْ، اقتربتُ من فراش أمي، هززتُها مخاطباً: أمي.. ورد الشام عادت.. فتحت والدتي عينها، ثم نهضت.. تثاءبت قبل أن تسأل القطة بشيء من المعاتبة والنّصح: أين كنت يا حبيبتي.ها.. الساعة صارت الثالثة بعد مُنتصف الليل، ألا تخافين على سمعتكِ؟ ماذا سيقول الجيران عندما يشاهدونك راجعة في مثل هذا الوقت.ها..؟!

بقيت ورد الشام صامتة، ويبدو أنها بدأت تفكّر بالنتائج السوداء التي تنتظرها.

قلتُ: بالحقيقة يا أمي، الحبّ أعمى.

أجابت والدتي مخاطبةً القطة:

«اسمعي يا ورد الشام، هذا الوضع ما بيناسبنا أبداً، نحن جماعة لنا سمعتنا ومكانتنا بالحارة وبين الجيران».

وقفت القطة ودخلت المطبخ خجلة حزينة..

في الصباح لم استيقظ على «خربشاتها» ولعبها حولي..

بحثتُ عنها.. سألتُ الجيران عن قطة شقراء ناعمة، اسمها ورد الشام، لكنهم جميعاً أنكروا معرفتهم بها..

تراهم عرفوا الحكاية.. ولاحظوا كثيراً تغيّب القطة الدائم عن المنزل..

يُبلّلني المطر وأنا أدور في الحارة باحثاً عن ورد الشام.. دون جدوى.. متأكداً أنها لن تعود أبداً إلى حارتنا بعد اليوم.

* * *

عالم يضيق بسكّانه

الصباح ماطر ..

والسماء ترتدي غيوماً رمادية، فضفاضةً وواسعة، ينتابني شعور بالمتعة والارتياح برؤية هذا المشهد وأنا أشرب «المتّة»، في حين تأخذ مثانتي بالانتفاخ والامتلاء ..

غرفتي صغيرة، نصفها كتب ومجلات مستعملة، والنصف الآخر يشغله سرير عسكري قديم، مقشور الدهان، وتحته كرتونه امتلأت بأدوات مطبخيه قديمة .

أهبط الدرج ...

الهواء رطب، مشبع بالبرودة والمطر .. ويبدو أن العاصفة سوف تقوى وتشتدّ هذه الليلة .

دورة المياه مشغولة في أغلب الأوقات، لاشك أن أحد الجيران بداخلها الآن، فأنا أسكن مع مجموعة من الناس داخل بناء مكوّن من طابقين، ولا يحتوي إلاّ على حمّام واحد.

أقرع الباب الحديديّ الذي غزاه الصدأ منذُ سنين.

أسمع صوتاً اعتدتُ عليه:

مين؟

عفواً عمّي أبو بافل.. مطوّل؟

- شو قلت؟

لا أُجيب، أعود إلى غرفتي ريثما ينتهي جاري من مهمّته.

وجاري أبو بافل، رجل عصبي المزاج، حزين، طويل كقصبة، لكنه ممتلئ، أفكاره ثورية، أحياناً تظنّه مجنوناً، في رأسه خصلةً أو ثلاث خصلات من الشعر الأبيض بقيت صامدة حتى الآن ولم تسقط.

كان يقول عنها: إنها حصيلة ما بقي لديه من هذا العمر، ومن هذه الدنيا.

عمره تجاوز السبعين، متشائم، قلق، ولا يستيقظ إلاّ وفي رأسه خواطر متشابكة وأفكار مُعقّدة، يقضي النهار بطوله في محاولة حلّها وفكّها عن بعضها البعض.

وفي كثير من الأحيان كان يقترح أن يكون هذا العالم دورة مياه، ذلك أفضل بكثير من أن يكون مسرحاً للقتال والتّدمير، وتشريد الأبرياء وتصفية الحسابات، وإسقاط القنابل الذرية على البشر والشجر.

يتحّرك شيء ما في بطني، يُذكّرني ويقطع شرودي..

أهبط الدرج مرة أخرى... أقرع الباب الحديدي بلطف:

عمّي أبو بافل.. من فضلك. مطوّل؟

هذه المرة يسمعني إذ يردُّ ويطمئنني:

«لأ عمّي.. عشر دقائق بالكثير».

في المدينة هناك دورة مياه واحـدة ومتعـدّدة تفـي بـالغرض، وهي عامة، أي لا تضطّر لدفع عشر ليرات لتستريح مما تحملـه من أوساخ زائدة، بـالأمس عـدتُ إليهـا مـرتين . . وفي المـرتين كانت مشغولة، لكن انتظاري لم يدم سـوى دقـائق حتـى جـاء دوري فدخلت .

أُفكّر أحياناً أن من سِـمات الحـضارات وتقـدّمها، الاهـتمام بتصريف أوساخها وقذاراتها . . إنما تفكيري في هذه المرة لم يطـل كثيراً، إذ أن إحساسي بالامتلاء بدأ يضايقني، ويكبر ويتـضخّم ويزداد . .

أعود لأهبط الدّرج، وفي هذه المرّة أقرع الباب بقـوّة : عمـي أبو بافل . . بشرفك، مطوّل، يعني بصراحة . .

يقطع كلامي ويقول :

«قلتلّك عشر دقائق . . ولوّ ! بعرفك بطل» .

تمتدُّ الدقائق وتطول . . ويتفـرّع منهـا دقـائق أخـرى ثقيلـة، صامته ومملّة . . .

فكّرتُ :

لو أذهب إلى دورة مياه الجيران، أليس أفضل من هذا الانتظار الأليم والذي يبدو أنه سيطول؟

لكنهم ماذا سيقولون عني؟!

سيضحكون عليّ وسوف ترمقني جارتنا أم رضا وتقول :

يا حسرتي على «زلم هاليوم، زلم من بسكوت وفلّين» .

وربما ستسألني بشيء من العتب وعلى مسمع ابنتها الصّبية :

«يا سندي، كيف بدّك بكرة تتزوّج؟!» .

أطرد الفكرة من رأسي فوراً .. وكي أخفّف من ألم انتظاري، وثقل حسرتي أتخيّل بأنني أبوّل في تلك الدورة، دورة المياه التي يقترحها تفكيري الحزين، لكن تخيّلي لم ينجح إذ يعود إحساسي أنني ممتلئ ..

ممتلئ وعلى وشك الإنفلات ..

أهبط راكضاً نحو الحمام ..

- عمي أبو بافل: «دخيلك، مطوّل؟ صار بدّي انفجر..».

لا يَرُدّ..

أعود لأرفع صوتي وأنا أضرب الباب بقبضتي:

«عمّي أبو بافل.. والله صار لك أكثر من نصف ساعة، شـو الشّغلة كيميا؟ أو ولادة؟!».

لا يرد...

كما أنني لم أعد أسمع صوته فيما بعـد في فنـاء الـدار، أو أراه يدخل دورة المياه باصقاً في كل مرة على عـالم قـذر شرع يـضيق بسكّانه، ويستعدّ للانفجار في أية لحظة..

* * *

مزحة..

ثمّـة عجـوز تـسير مرتبكـة وسـط الظـلام البـارد، جـارةً خلفها حمار أحمق عنيد، يخطو خطوات متردّدة ثم يقف .

وكانت السماء قد اكفهـرّ وجههـا وأعـتم، وبـدا أن هنالـك عاصفة شديدة سوف تحلّ على المدينة في هذه الليلة .

ومن حين لآخر كانت الريح يعلو صـوتها فتزمجـر في وجـه العجوز والحمار المتردّد العنيد .

تهمس العجوز مقتربة من الحمار :

«خير إن شاء الله .. ليش ما بدّك تمشي يا بعدي»؟

ويبقى الحـمار جامـداً ولا يعـير أي انتبـاه لكـلام العجـوز، ينظر بعينين كبيرتـين بلهـاوين إلى مـا حولـه ويعطـس عطـسةً قويّة .

تعود العجوز لتشدّ الحبل، محاولة مساعدة حمارها على التقّدم وسط الظلام، وتفكِّر بينها وبين نفسها:

«يا ربّي... الوقت تأخّر كتير.. شو بدّي ساوي مع مقصوف هالرّقبة ؟!».

تحاول مرة أخرى... وتنجح في حثّ الحمار على التقدم، هاهو يمد رأسه طائعاً ويمشي، تتنهّد العجوز وتحاول شدّ الحبل: «الحمد الله يا ربّي... الحمد الله».

لكن الحمار ما يلبث أن يقف من جديد، فيشّتد غضب العجوز ويمتزج غضبها مع زمجرة الرياح وهبوبها...

ها هي تمطر..

مطراً خفيفاً ممتزجاً بثلج بارد، سيتراكم عمّا قريب فوق جسد المدينة.

صامتة المدينة الآن كمقبرة، مظلمة كفم وحش جائع. تقف العجوز حائرة:

أتترك حمارها وشأنه وتذهب؟ أم تحاول من جديد.؟

والعاصفة يُسمع صوتها من بعيد، قادمة لا محـال.. وفجـأة تنتصب أذنا الحمار وترتجفان، ليس من البرد، بل من صوت مـا قريب، تلتفت العجـوز نحـو مـصدر الـصّوت، ومـن خـلال الظّلام تستطيع أن ترى أربعـة أشـباح تـسير مترّنحـة، متمايلـة كأنها ترقص..

وما أن وصلوا إلى جانبها حتى وقف أحدهم قـائلاً لرفيقـه وهو يشير بيده إلى الحمار:

انظرْ كيف كنت وأنت صغير.

ويضحك الرجال بصخب، ويتمايلـون مـع الـريح والمطـر، ويبدو أنهم خرجوا للتّو من خمّارة قريبة.

وسُمع فجأة صوت رجل يقول:

«كُلّنا حمير.. شـو بهـا حيـاة الحمـير، مـش أحـلى مـن حيـاة الكثيرين من حولنا!».

اقترب رجل منه وأمسك بثيابه:

انتبه لكلامك.. نحن بشر ولسنا حميراً.

- وما الفرق بينك وبينه؟

وتابع الصوت نفسه:

أنا أقول لك، الفرق بسيط، أنت تمشي على اثنتين وهو على أربع.

يتعالى الصخب والضحك، فيغضب الرجل الذي أُهين وشُبّه بالحمار، يسحب من جنبه مُوسىً تبرق شفرتها وتلتمع بوضوح في عيني الحمار الواسعتين، فتتسمّر العجوز وتحاول متلعثمة تهدئة الوضع:

«عيب يا شباب.. طولوا بالكم..».

ويحدّق الحمار إلى الرجال مندهشاً، ويبدو أنه سوف يطلق عطسة قوية، أو نهيقاً مفزعاً احتجاجاً على ما يرى، يقترب الرجل صاحب الموس ويمسك بثياب زميله قائلاً بغضب:

- اسحب كلامك ! من هو الحمار؟ !

- صدّقت .. أنا أمزح ... أقصد ... يعني لو كنا حميراً لكانت حياتنا مريحة أكثر، على الأقل يا أخي، ما في تمييز عنصري بين الحمير.

يحيط الرجال الثلاثة برفيقهم، قاطعين ضحكاته بحركاتهم الغاضبة، ويقول أحدهم بقرف:

ماذا قلت... أتعرف أنك تُسيء بهذا الكلام لسمعة البشريّة، كيف تقول لو كانت حياتنا كحياة الحمير لكانت أحلى، ها.. كيف؟ !

وتتعالى الأصوات مُؤيّدة ..

صحيح... كيف تقول هذا الكلام؟ !

ويرد الرجل خائفاً:

«عم أمزح يا شباب ... بشرفي عم أمزح ..».

وتحاول العجوز أن تسير، بعد أن تأكّدت من أن الموقف سوف يسوء أكثر ويحتّد، فيتبعها الحمار هذه المرة رافعاً رأسه، مطلقاً نهيقاً فظيعاً ملأ المكان، وتسمع العجوز وهي تبتعد متغلغلةً داخل العتمة شِجاراً حاداً بين الرجال ، يعقبه طعنات قوية اخترقت اللحم والعظم، وصوتاً ملتاعاً يائساً ما يلبث أن يتلاشى في ظلمة الليل الطويل ...

* * *

الرمـاد..

حكاية حب انتهت بالجنون..

ها أنا أركض...

وتركض معي صورة رشيدة.. أراها الآن أمامي، تطفو كجثة لفظها البحر، ثم قذفها الموج على شواطئ ذاكرتي التي نخرها المرض، وأتعبتها الأحزان..

لم يكن ذلك الركض هروباً.. بل شكلاً من أشكال الاحتجاج على تناقضات هذا العالم، ومفارقات هذه الحياة.

آنذاك، كان من المفروض أن أذهب وأبحث عنها.. دون الرّد على المعترضين، أو التّأثر بأفكار العائلة، وإرشادات المسنّين، ليتني فعلت ذلك وليعتبرني الآخرون مجنوناً!

- ٢ -

هذه الصورة لعمتي زعل، وهـي في الـسابعة والـستين مـن الصبر والحرمان، والصورة الثانية لابنتها رشيدة، الشّبه واضح بين الصوّرتين، ويمكن لأي طفـل أن يكتـشف بـسهولة، الأم من الابنة.

تبلغ رشـيدة الآن مـن العمـر حـوالي الأربعـين عامـاً، وبذلك يكون قد مـرّ على هروبها من البلد عشرون سنة.

كانت عمتي زعل تحبني، وتجـد في وجهـي وتـصرّفاتي مـن المتعة، مـا لم تحـصل عليـه طـوال حياتهـا، لـديها أربـع بنـات، أصـغرهن رشـيدة، التـي بقيـت العزبـاء الوحيـدة بعـد زواج أخواتها الثلاث، وكنت كلما زرتها، أو ذهبـت معهـا إلى الكـرم لقطف العنب أسمعها تقول هامسة:

- ما رأيك برشيدة يا حمادة، بشرفك قل الـصدق، ألا تـشبه الغزالة؟

- بل هي الغزالة نفسها يا عمّتي.

تضحك عمتي بهدوء، تمدّ أصابعها لتخفي فمها خوفاً من أن تسمعها ابنتها، كأنها تريد قتل الفرح الذي ظهر في عينيها.. ثم فجأة أسمعها تقول بصوت كأنه لغيرها:

- يا الله.. يا الله.. شد حيلك حتى أزوّجك إياها..!

فأخفض رأسي، وأتمنى في تلك اللحظات أن أغيب، أو أتلاشى في الفضاء، كما يتلاشى الدخان.

كانت فكرة الزواج تخجلني، وتبني في نفسي عقداً جديدة.. ورغم تعلّقي الصامت برشيدة، كنت أخفي ذلك، مُفضّلاً البقاء عازباً طوال عمري، على أن أتزوج ليوم واحد، فزواج أبي للمرة الثانية جعلني أفكّر بالانتحار مراراً، لما سمعته من كلامٍ جارح، ولما رأيته من معامله قاسية.

-٣-

كانت أمي قد رحلت وأنا ما أزال في السابعة من عمري.. فقام والدي وتزوَّج ليحميني من التشرد والضّياع.. هكذا اعتقد، ظن أن امرأة أخرى غير أمي قادرة على تربيتي وحمايتي، لكن ظنّه لم يكن في محله..

ففي الخامس والعشرين من شهر نيسان وقعت مشكلة كبيرة بين أبي وخالتي - زوجته الجديدة -

كان رفاقي: حمزة ومروان وعماد، قد جاؤوا، وطلبوا من خالتي أن تسمح لي بالذهاب معهم إلى البحيرة، ورغم أن أبي أوصاها بألاّ أخرج وحيداً إلى مثل تلك الأماكن فوجئتُ حين قالت:

- حسناً.. اذهب معهم يا حمادة، وحين تعود لا تدع والدك يراك.

لكن والدي وجدني قرب البحيرة مع حشد كبير من البشر، قادني بغضب إلى المنزل، وهو يتوعّد ويرعد ويشتم زوجته ويردِّد:

- لقد غرق حمزة في البحيرة ومات!.

ضربها والدي ضرباً مبرحاً، ثم ربطها بحبل طويل، أقفل الباب عليها، وأخذني إلى منزل عمتي زعل.

وحين عدت بعد أيام إلى البيت، وسألته عن خالتي قال كأنه يطمئنني:

لقد رحلت.. لم تعد تتحمّل الحياة معنا.

وحين وجدني أبكي اقترب مني، حضنني بحب وحنان:

- إنها غير قادرة على رعايتك يا بني.. إنها فقط تهتمّ بنفسها، وهي قادرة على رعاية شَعرها أكثر من رعايتك أنت...

حزنت عليها، رغم معاملتها القاسية لي.. فالعشرة تولّد الحب أحياناً، حتى ولو كانت ممزوجة بالقسوة.

-٤-

وما هي إلاّ أسابيع قليلة حتى وُجد أبي جثة عائمة فوق سطح البحيرة، لقد تركني ورحل.. ولم أفهم حتى الآن لماذا فعل ذلك، لقد أغرق نفسه بإرادته، أنا متأكّد من ذلك، لأنه لا يعقل أبداً أن يغرق سبَّاح ماهر كأبي في بحيرة عمقها أقل من أربعة أمتار.

وهكذا بدأت عمتي زعل برعايتي، والاهتمام بي.. والتخطيط لأن أكون صهرها في مستقبل الأيام.

وذات يوم.. سمعتُها أمام رشيدة تقول لي:

ـ يا لله يا حمادة .. شد حيلك لأزوجك رشيدة .

ولاحظت رشيدة خجلي وارتباكي، فحـدّقت في وجـه أمهـا وصاحت :

ـ لن أتزوّج من أحد أقربائي أبداً، هذا أوّلاً، وثانيـاً، حمـادة يا أمي مازال صغيراً .

ـ يا بنتي .. الصغير لا بد وأن يكبر، طوّلي بالك سنة زمـان، وستجدين حمادة شاباً من أنبل شباب البلد .

ويبدو أن رشيدة كانت جادة تماماً فـيما تقـول، فهـي أصـغر بنات عمتي، وأكثرهن دلعاً، وعبثاً ومشاكـسة، أمـسكتني مـن يدي ذات مرة، وقالت مهدّدة، زامة فمها إلى أقصى حد، نافشةً جسدها لتبدو أكبر مني :

ـ اسمع يا ولد، أمي امرأة «خرفانه»، تهـذي بـما لا تعـرف، أنا لن أتزوج، يعني لن أتزوج، أفهمت !؟

ـ ولا حتى من البعيدين عن عائلتنا؟

ـ ولا حتى من رجال الفضاء، وسكان المـريخ، لـن أكـون غبيّة لأفعل ذلك، أفهمت؟

- فهمت .

لعلها رأت مثلما رأيت .. إنما بصورة أخرى، فربما شاهدت والدها مراراً وهو يضرب أمها، أو يكسر الصحون وزجاج النوافذ، فانطبع في ذهنها فكرة سيئة عن الزواج، أو ربما كانت تسمع من حين لآخر مشاجرات أخواتها مع أزواجهن، فتعزف عن هذه الفكرة الغبية، وتأخذ قراراً أثناء ذلك أن تبقى عزباء، وحيدة .. ومَن يدري، فالصّلابة والتشدّد في مواضيع كهذه لا يمكن المراهنة عليها، أو الوثوق بها، فموضوع المشاعر والأحاسيس والعواطف تخضع لظروف خاصة، وشخصية جداً .. من يدري، ربما تغيِّر فكرتها مع الأيام، فالحب لا يفرِّق بين جبابرة وصعاليك، بين غني وفقير، أو بين قوي كالحديد وضعيف كجناح فراشة .

تلك هي رشيدة ..

بنت شقيّة، صارمة، معتدّة بنفسها كثيراً، لا تقبل من أحد التدخل في مواضيع تمسّ حياتها الشخصية، من قريب أو بعيد، حياتها بدت لي غامضة من أوَّل معرفتي بها وتفتّح براعمي للحياة، حادة الذكاء متمردة، ومغامرة كموجة تدفعها الريح،

فلا يهمّها أبداً الاصطدام في وجه الصخور الشرسة، المسنّنة كرؤوس الحراب، لأنها ستعود مرة أخرى لتتجمّع في أعماق البحر وتصعد من جديد..

-٥-

في العام التالي نجحتُ في الدراسة وانتقلت إلى الصف العاشر..

فرحتُ أبحث عن عمل لتأمين لقمة عيشي، وثمن كتبي.. وهكذا، اتفقت مع أولاد عمي للعمل مع عمتي التي كانت تملك أرضاً لا بأس بها تزرعها بالحنطة والبطيخ والخيار..

كان موسم الحصاد قد حلَّ في البلدة منذ عدة أيام.. ها أنا مع عمتي وابنتها رشيدة منتشرون في الأرض، نحصد القمح الأصفر كسلاسل الذهب، نكوّمه هناك، ليأتي أولاد عمي فينقلوه إلى البيدر، لدرسه وفصل القش عن الحبوب..

كانت عمتي زعل تعتمد عليَّ في كثير من الأعمال.. فمرة ترسلني لإحضار الماء من البلدة، وتارة تتركني واقفاً أمام الخيمة لحراستها وحراسة ابنتها المتكبّرة..

وذات مرة، غفوت .. ورأيت في منامي صندوقاً كبيراً غارقـاً داخل البحيرة، فـاجتمع أهـل البلـد حولـه، وقـال لي المختـار بلهجة حازمة:

- أنت من وجده، وأنت من سيفتحه.

ودون أن أجيب اقتربت مـن الـصندوق، مـددت يـدي ثـم حاولت رفع الغطاء، لكن يداً ما امتدت وأيقظتني:

- حمادة .. يا حمادة .. أنت نائم ها .. نائم ..

رأيتُ رشيدة تقف بجانبي، كأنهـا تريـد بـذلك أن تثبـت لي بأنها لن تكون لي أبداً.

مدَّت يدها وناولتني البندقية:

- يجب على الرجل ألاّ ينام وينسى من ائتمنه على روحه.

- لم يكن بيدي، لقد غفوت غصباً عني.

- هذه حجة سخيفة، لماذا لم توقظني، أو تـوقظ أمـي، كـي نقوم بالحراسة بدلاً منك... ريثما تشبع نوماً.

غاظني كلامها، إذن هي تتعمَّد إحراجي.

في الليلة التالية تركت عمتي ورشيدة وعدتُ إلى البلد مـشياً على الأقدام، لا يمكنني الاستمرار بالعمل مع شخص يـسخر مني، فرشيدة لا يهمّها أبداً جرح مشاعري وإلهاب دمي، كل ما يهمها أن تقول كل شيء تفكّر فيه.. يجب على الإنسان ألاّ يفكّر بصوت مسموع كي لا يخسر الجميع.

كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة ليلاً، وبقي أمامي حوالي ساعة حتى أصل إلى أوَّل بيت مـضاء في البلـد.. عنـدما وقـف شعر رأسي، ارتجفتْ ركبتاي وشرع قلبي يخفق بسرعة:

تُراه كان بانتظاري؟!

تُراه عرف أنني في هـذه الليلـة بالـذات سـأعود وحيـداً إلى البلد؟!

كنت قد ابتعدت كثيراً عن الخيمة.. وحتى لو صحت بأعلى صوتي، فلا أعتقد أن أحداً ما سيسمعني.

سمعته وهو يتشمّم الأرض من حـولي.. ثـم لمحـت رأسـه وهو يتّجه نحوي..

لم يكن بالقرب مني أية شجرة أتسلقها هارباً من الموت، اصطكت ركبتاي ارتجافاً، وشرع رأسي يهتزُّ كأنه لعبة للصغار.. كنتُ قد جلستُ حين سمعتُ أنفاسه، وحين تذكرتُ رشيدة نهضتُ عن الأرض، وبصعوبة تناولتُ حجراً، رميته عليه ورحتُ أركض.. فأخذ يركض خلفي.. ربما أراد تعذيب روحي، فلم ينقض عليّ بقفزة واحدة قاضية، بل راح يطاردني كأنه يطارد فأراً ضعيفاً يسهل قتله بعد أن يتمكن منه الخوف.. وعلى غير إرادتي سمعت صُراخي، واستغاثتي، لكن الوحش لم يكترث.. إنما بدأت أشعر بأنه يقترب مني، وأدركت أن لحظة النهاية شارفت على الانتهاء..

ومرة أخرى انهرت فوق الأرض.. ها هو يقترب.. ضخم ومرعب، رائحته مقزّزة، كرائحة الجثث.. وبطنه منتفخ بلحوم كائنات افترسها.. يقال: إن الذئب هو مجموعة من الخراف المهضومة.. ها قد أصبح على بعد عدة أمتار من جسدي المرتجف كورقة في مهب الريح، وها أنا أنتظر اللحظة

الأخيرة من حياتي، كـم سـتكون هـذه الميتـة مرعبـة وحزينـة، جسد حمادة افترسته الوحوش !!!

وفجأة .. كأنني كنت أحلم، دوَّى في الفـضاء طلـق نـاري .. أعقبه طلق آخر مرَّ من فوق رأسي ..

ذُعر الوحش، كأنـه هـو أيـضاً كـان يحلـم واسـتيقظ، راح يركض مرتبكاً، ثم سمعت بعد دقيقة طلقاً آخر أعقبه صرخـة مؤلمة أطلقها الوحش، لاشك أنه أُصيب .

وبين الحياة والموت، رأيتُ وجهاً أليفاً، بدا لي - في اللحظـة نفـسها – أنـه وجـه لفتـاة تـشبه الملائكـة، سـمعتْ صراخـي ونجدتي .. اقتربت مني .. مدّت يدها ورفعتني عن الأرض :

- هيا .. انهض .. هذه بريّة يا حمادة وليست حديقة حيوانات مسوّرة، كل شيء فيها منطلق وغير مقيّد، لمـاذا لم تخبرنـا بأنـك عائد إلى البلد؟ ! ألهذا الحد تكرهنا؟ !!

- أنا لا أكرههم بل أكره كلامكِ .

أجبتُ رشيدة متمنّياً في تلك الدقيقة أن تنشق الأرض وتبتلعني.. شعور غريب اجتاح كياني، شعور من يريد إثبات جدارته ولا يستطيع.. شعور من يريد أن يسبق الجميع وهو عاجز عن تحريك أطرافه.

لقد ازداد إعجابي برشيدة، لكنني لم أكن على استعداد للزواج منها حتى ولو قبلت الفكرة، كانت قوية، ذات شخصية متمرّدة، ناضجة، والرجل في بلادنا لا يحب هذه النوعية من النساء، إنه يرغب بالزواج من امرأة مطيعة تسمع وتعمل في المنزل، وتنجب له أطفالاً، ولا يكون لها أي رأي في أي شيء..

- هيا.. قم وألحقني..

وبدلاً من العودة معها إلى الخيمة، رحت أركض، كأنني بذلك أريد الانتقام منها ومن نفسي، ومن فوقي لمحتُ القمر، كان كبيراً، جميلاً كوجه فتاة حسناء لم تتزوج أبداً..

كنتُ أبعد حوالي ساعة عن البلد، لكنني إذا تابعت ركضي سأصل بربع ساعة، لذلك هرب الخوف من أعصابي،

واستراح رأسي من الذعر الذي أصابه منذ قليل، والوحش ربما كان يلفظ أنفاسه الأخيرة الآن في مكان ما.. لقد أُصيب.. أنا متأكد.

وعند أول ضوءٍ في البلد سمعتُ صوتاً من خلفي كأنه يطمئن نفسه:

- الآن يمكنني العودة، لقد وصل حمادة أخيراً..

وقفت غير مصدَّق.. من أية طينة خُلقت تلك التي يدعونها رشيدة!!؟

ها هي تستدير عائدة إلى الحقول وفوق كتفها البارودة.. وكأنها قائد مظفر، عاد من المعركة بعد أن أدى واجبه بشجاعة وبطولة...

-٦-

تقع بلدتي جنوب العاصمة، أو بالأصح التي صارت بلدتي بعد نزوحنا من الهضبة.. بُنيت منازلها من الطين المشوي المجبول بالتبّن، أما قلعتها العملاقة، فكانت مبنيّة فوق قمة بركان، حجارتها من البازلت الصلب الأزرق، وحين كنتُ

أراها من بعيد كان يُخيّل إليّ أنها صُنعت، أو بُنيت في عالم الخيال، ولا أبالغ إذا قلت بأن عمرها من عمر الكون والنجوم، وفي الزمن السحيق وُلدت..

هكذا هي تلك القلعة، وديعة، هادئة في مظهرها، صلبة وقوية، مليئة بالأسرار في أعماقها، كنت أظن أن من يسكنها ليس الإنسان، بل الملائكة والرسل..

لكن رؤيتي تبدَّلت حين كَبِرتُ، لأكتشف سذاجة مخيلتي، وسخف أفكاري، عمّي، كبير العائلة، كان يُجلسني إلى جانبه ليقصّ عليّ قصة تلك الماردة التي سكن الناس حولها، كأنه يخاف من ضياع الحقيقة، فما تلقِّنه للصغار يبقى حتى آخر العمر.

كان عمي مدركاً لتلك الحكمة البسيطة في مظهرها، العميقة في مضمونها كتلك القلعة.

لم يسكن القلعة الرسل والملائكة، بل الغزاة..

أجل.. الغزاة مرّوا من هنا..

وكانت المعارك، والحروب الدامية بين السكان من جهة وبين التتار وجيوش تيمورلنك .. وهولاكو .. والرومان والصليبيين من جهة أخرى، مروراً بجيوش متوحشة استوطنت هذه البلاد ونهبت خيراتها، آخرهم الفرنسيون والإنكليز.

قال عمي: إن أخطر من احتلوا القلعة كانوا الفرنسيين والإنكليز الذين فرّقوا بين الناس، وقسّموا حتى الدول الكبيرة، بلاد الشام والجزيرة العربية إلى دويلات ضعيفة يسهل السيطرة عليها .. وزرعوا قبل رحيلهم كتلة لحم متعفّنة في قلب الوطن العربي الذي كان وما يزال ينبض بالقوة والإيمان..

كل ذلك أدهشني، وأوقع في روعي الشك والخوف من الآتي.. فما تحمله الأيام إلينا أشد قسوة، وأكثر شراسة..

يقول عمي: إننا نحن الجيل الجديد جئنا على طبق من فضة وذهب، لكن ما ينتظرنا هو أقوى وأعنف من كل الحروب التي خاضها العرب عبر تاريخهم.

-٧-

كانت القلعة تبدو لي كعلبة مغلقة، دُفن فيهـا آلاف الأسرار و«ملايـين» الألغـاز والحكايـات التـي لم تـستطع أحلامـي أن تنسجها بعد، حتى جاء يوم ماطر قرَّرت فيه مع ابن عمي وليد أن نقتحم العلبة ونفتحها، كان وليد أكبر مني بخمس سنوات، ربما هذا هو السبب الحقيقي الذي يدعوني إلى أن أحترمه، فقـد عودتنا التقاليد أن نحترم من هو أكبر منّا سنّاً، ليس لقوتـه بـل لسنوات عمره، حتى ولو كانت تلك الأعوام قد قضاها في سرقة الفقراء، والتخطيط لإحباط آمالهم..

- اسمع.. سيكون ما نقوم به سرّاً.. أفهمت؟

- طبعاً.. سر عميق كالبحر.

- أحسنت.. وثانياً، أي شيء تراه لا تحاول لمسه.

قلتُ متسائلاً:

- ولماذا.. هل سيمسّني الجنّ؟!

- طبعاً، صحيح أن القلعة مهجورة منذ سنين، لكن النـاس لا تعرف أن الـشياطين والجـن الأزرق تـسكنها.. أفهمـت مـا أقوله يا حمادة.. لا تجعلني أندم.. أفهمت؟!

بسهولة أدخلنا الحارس، بعد أن منحه وليد علبة دخان..

هذه هي الحياة.. لن تحصل على شيء دون مقابل، حتى ولـو أردت أن تحلم، فالقلعـة كانـت بالنسبة لي حلـم ممتـع، جميـل شفّاف، كل تلك الكتلة العملاقة من الألغـاز والأسرار كانـت محـشوة في رأسي، وداخـل ذاكـرتي، وهـا أنـا أحـاول تحقيـق أحلامي..

صعدنا الطريق الـترابي الـضيق، الجـاف كجلـد بقـرة نُـشر في الشمس طيلة أيام الـصيف، وفي كـل خطـوة كنـا نخطوهـا نحـو الحلـم كـان الطريـق يـضيق أكثـر ويـنكمش عـلى نفـسه كقنفذ..

كانت القلعة كبـيرة، أكـبر ممـا تـصوّرت، فاقـت حجارتهـا البازلتية حجم خيالي، لم أكن أتوقع في يوم من الأيـام، أن هـذه الأحجار العملاقة خبّأت خلفها شـوارع وأزقـة وأقبيـة ميـاه، واصطبلات للخيول وحوانيت وأكثـر مـن بئـر لميـاه الـشرب، باختصار.. كانت مدينة كاملة..

فجأة وجدنا أنفسنا داخل مغـارة مظلمـة هـرب منهـا للتـو وكاد يصطدم بنا خمسة خفافيش أو أكثر، مخلوقات كبيرة، تشبه الفئران لكنها تطير..

أضاء وليد المصباح الصغير الذي أحضره مـن المنـزل.. ثـم راح يتقدّم..

- اسمع يا حمادة، مثلما اتفقنا، لا تلمس أي شيء..

- حاضر.

ثم، رأيته يقف أمام كوة صغيرة في الجدار، مدَّ يـده وسـحبه بهدوء، كأنه يسحب طفلاً وقع وتكسّرت أضلاعه.

- سوف أطلعك على سر.

كأنني كنتُ أنتظر ذلـك، انفجـرتْ في رأسي كـل الأحـلام دفعة واحدة، وغطّت الأمنيات مساحات واسـعة مـن روحـي وكياني.. ولا أدري كيف هجمت عـلى وليـد، ورحـت أضـمّه وأقبّله بغبطة كإنـسان شـاهد ابنـه فجـأة، ابنـه الـذي فقـده في الحرب، أو في زلزال مدمّر..

- ما بك؟.. هل جننت؟.. ما بك؟! ماذا أصابك؟!

ورغم عدم معرفتي بما سيقوله لي عن السرّ، همست بفرح:

- كنت أعرف أنك تخبئ لي مفاجأة.. بشرفي، كنت متوقعاً ذلك.

استدرنا عائدين إلى باب المغارة، حيث الضوء، وهناك رفع وليد ذلك الشيء بين يديه قائلاً: هذا هو الملك!

- أي ملك!؟

- ملك هذه القلعة، أليس لكل قلعة ملك يحكمها؟

كان تمثالاً مذهّباً بوجه قاسي الملامح، غاضب، في عينيه حقد دائم، وعلى شفتيه ارتسمت تكشيرة تشبه تكشيرة الذئاب.

- هذا ملك أم قرد؟!

- لا تقل ذلك يا غشيم، سوف يؤذينا سكان المكان.

- السكان؟.. أي سكان؟؟

- ألم أقل لك أن داخل القلعة سكاناً؟.

وتذكرت الجن والشياطين الذين أخبرني عنهم، فصمت فجأة، واقتربت منه كأنني بذلك أريد الاعتذار.

ثـم شرع وليـد يـشرح ويحلّـل ويـسمي حقبـاً وعـصوراً، وجيوشاً مرَّت من هنا.. ولم أستطع أن أفهـم أي شيء مما كـان يقوله، وقت ذاك كنتُ صغيراً، ولم أكن أعرف شـيئاً عـن هـذه القلعة، بينما كان وليد مُطَّلعاً أكثر مني، لأنه أكبر، مـدركاً تمامـاً تاريخ هذه القلعة المنسية..

وكل ما استطعت معرفته حينذاك، أن هذه القطعـة الذهبيـة نادرة جداً، وثمينة جداً، وهي - كما قال وليد - للملـك الـذي كان يحكم هذه الـبلاد.. فلعـب الفـأر في عُبّـي، ورغـم صـغر سني، رحتُ أخطط بيني وبين نفسي للاستيلاء على هذا الملـك بطريقة أو بأخرى..

واعتقدت أنني أذكى من وليد، الذي منحنـي القطعـة بعـد عدة أيام، مقابل ثلاث علب دخان ومذياع أزرق صغير جاءني هدية من خالي في لبنان.

كان وليد يريد التخلّص لسبب غـامض مـن هـذه التحفـة، إنما بثمن، حتى ولو كان ذلـك مقابـل علبـة دخـان رخيـصة، أو مــذياع قــديم مــستعمل، لا يلــتقط إلاّ موجــة ســخيفة واحدة.

ربما كان يدرك تماماً معنى أن يمتلك الإنسان قطعة نادرة كهذه، فإذا شعرت الحكومة به سيكون مصيره السجن، دون سؤال أو جواب، أمّا مصير القطعة فإلى المتحف، أو إلى سماسرة الآثار والتهريب.

اشترط وليد علي أن أقول إذا أحد ما رأى التمثال معي، بأنني وجدته داخل القلعة بينما كنت ألعب..

أنا أيضاً، من جهة أخرى كنت خائفاً من أن يغيّر وليد رأيه، ويأتي بعد يوم أو يومين لاسترداد التمثال ورد مذياعي وعلب الدخان.

ومضى أسبوع.. وجاء آخر، وأنا أتقلَّب على بساط من شوك وخوف، ليت وليداً يفقد ذاكرته، ليته يتبرّأ مني حتى يوم الدِّين..

كنت متأكداً من أنّ وليداً سيغيّر رأيه في المستقبل، ويتخلّى عن خوفه ويأتي ليأخذ القطعة مني، بالقوة.. بيد أن الذي حدث لم يكن متوقَّعاً أبداً.

فجأة، اختفى وليد من شوارع البلدة وسهراتها.. جثم الهمّ على صدري، وركبني الخوف، لعل أحدهم وشى به؟! لعله الآن يرشدهم إلى منزلي، لعله.. لعله..

ومن باب الاطلاع والفضول ذهبتُ إلى منزله..

كان عمي جالساً قرب عتبة الباب كعادته دائماً، وإلى جانبه عدة المتّة، وحين شاهدني مُقبلاً رحّب بي قائلاً:

- أهلاً.. أهلاً بالنّمر..

- أهلاً بك يا عمي.. أين وليد؟!

- وليد.. لقد أصبح رجلاً.

- أعرف.. لكن أين اختفى فجأة، هل سافر؟؟

- أجل.. لقد سافر ليؤدي الخدمة العسكرية.

وهكذا.. اطمأن قلبي، سوف يمضي في الجيش ليس أقل من ثلاث سنوات.. وخلال هذه الفترة ستدخل في رأسه معلومات وأحداث جديدة، تمحو المعلومات السابقة وتحلّ مكانها..

هكذا اعتقدت.. وهكذا تمنّيت..

وذات يوم، عاد وليد..

كل أهل البلد خرجوا ليرحبوا به، وليرفعوه على الأكف ويحملوه من أول البلد حتى آخره..

أمّا أنا، فقد أصابني نوع من الهذيان والكآبة الشديدة، لم أكن أتوقّع أبداً أن يعود وليد في يوم من الأيام بهذه الطريقة، مرفوعاً على الأكف وأكتاف الرجال، مستشهداً عند نقطة الحدود..

رفاقه قالوا لنا: إنه فجأة، وفي ليلة غاب ضوء القمر فيها، وخبت أضواء النجوم، تسلل وليد عبر الأسلاك الشائكة وأطلق النار على حرس العدو.. دون أسباب مقنعة، سوى سبب واحد، ربما كان هاجسه وأعزّ أمنياته: اغتيال العدو.. وزرع الرعب في صفوفه.

هذه الأفكار دخلت رأس وليد قبل أن يذهب إلى الجيش، وكان دائم التّوق لأن يصبح طياراً، وفي ليلة ما، يصعد طائرته وينطلق لينفذ عملية استشهادية.. دون إذن من قيادته أو إشارة من رئيسه.

وبرحيل وليد واستشهاده مات السرُّ واختفى كقطعة من جليد وُضعت فوق تربة ساخنة.. وبقي الملك قابعاً في إحدى أدراج مكتبتي، بانتظار من ينقله إلى مكان ما، بعيد، يقف فيه خلف زجاج سميك وهو يحدّق بكل جبروت الملك وسطوته في وجوه زوَّاره.

وهذا ما خططت له، وعزمت على تنفيذه .. فبعد وصـولي إلى البلد، هاربـاً مـن الـوحش ومـن تعليقـات رشـيدة الجارحـة، جهَّزت نفسي، وحضَّرت القطعة التي سـأحملها في الـصباح إلى المدينة، هنالك من يهتم بمثل هذه الحماقات، هنـاك مـن يعـرف كيف يستفيد من التراب، ويصيد في الماء العكر، في المدن يعيش أناس يختلفون في أفكارهم عنّا، وفي طريقة وصولهم إلى المـال .. المدينة علّمـتهم، وزحمـة النـاس فيهـا تُـوحي بأفكـار وخطـط جديدة، من الصعب أن نصل إليها نحن سكان القرى .

- ٨ -

في الصباح الباكر، خرجت دون أن يعلـم أحـد إلى أيـن أنـا ذاهب ... فقـط تركـتُ ورقـة صـغيرة فـوق وسـادتي لأولئـك الناس الفضوليين :

أنا ذاهب إلى المدينة، وربما سأنام هناك عدة ليـال عنـد أحـد أصدقائي ..

القطعـة الـصغيرة، التـي لا يتجـاوز وزنهـا الكيلـو غرامـاً، لففتها جيداً، وخبأتها داخل حقيبتـي، لكننـي غـيَّرت رأيـي في اللحظـة الأخـيرة، فنقلتهـا مـن الحقيبـة إلى يـدي، وغـيّرت تغليفهـا مـن جريـدة قديمـة إلى ورقـة هديـة حمـراء، مزخرفـة بـالورود.. إذا سـألني أحـدهم سـأقول: إنهـا هديـة، هديـة متواضعة لصديقي.

إن الأشياء المخفية، المخبأة، هي التـي تثـير رغبتنـا، وتحـرك فضولنا فنـسعى لاكتـشافها.. أمـا الأشـياء الظـاهرة فنكـاد لا نلتفت إليها أو نلحظهـا، إن الحرامـي الـذكي يـسرق ويـذهب ليختبئ فوق سطح المخفر، من يتوقَّـع أن يعـيش اللـص فـوق سطوح أبنية المخافر وأجهزة الأمن؟!

بقي التمثال بارزاً بين يدي، ملفوفاً لفّاً أنيقاً بورقـة الهديـة، كل شيء يمكن أن يحـدث للمـرء إذا لم يحـتَطْ جيـداً، يجـب أن أخترع أجوبة مقنعة لبائع التّحف، عـن مـصدر هـذا التمثـال، وكم مضى على وجوده في حوزتي.

كانت أحلامي أكبر من رأسي ومخيّلتي.. فهذه القطعـة التـي لا تـزن سـوى القليـل، سـوف يكـون لهـا وزن ثقيـل جـداً في

حياتي .. ستنقلب عيشتي وعيشة أهلي بسببها، وربما ستغيّر رشيدة رأيها فيَّ، وتركض ورائي، كما تركض الذئاب الصغيرة خلف أمها .

لم يسألني سائق الباص أو رجال الشرطة في مركز الانطلاق عمّا أحمل، فتشوا حقيبتي جيداً، وحدّق في يدي أحدهم قائلاً :

- هدية؟؟

- أجل .. هدية بسيطة لصديقي .

هكذا انتهت الأمور على خير ما يرام .. إنما حساباتي تغيّرت فجأة، وانقلبت رأساً على عقب، عندما انحرف الباص قبل وصولنا إلى المدينة وتدهور بغتة وانقلب .

ولم أصحُ إلاّ في المشفى على بكاء عمتي ونظرات أبنائها من حولي، وصوت رجل ضخم كان يجلس قرب سريري سألني بلطف :

- ما اسمك؟

- حمادة ..

- ما هو عمرك يا حمادة؟؟

- عشرون عاماً..

واستمرّ يسألني أكثر من عشرة أسئلة، وجميعها كانت بعيدة عما كنت أحمل بين يدي، فالشيء الذي كان سيسبب مشاكل كبيرة، لي ولأسرتي، وربما سوف يشكّل خطورة على حرّيتي هو تلك القطعة، ويبدو أن أحداً لم يلحظها، أو يَرَها في زحمة ما حدث.. لقد اختفت تماماً.

حزنت عليها أكثر مما كنت أتوقّع.. وذهبت قبل شفائي تماماً، بصحبة مروان أحد أصدقائي المخلصين، إلى مكان الحادث.. بحثنا كثيراً.. وعدنا بخُفّي حنين.

أما ما كان ينتظرني في بيت عمتي زعل، وابنتها رشيدة، فقد كان أهم بكثر من تلك القطعة المذهّبة، وأعمق وجعاً من كل أوجاعي، كنتُ أريد الارتباط برشيدة، لكن بغير هذه الطريقة.. فقد أُكتشف أمر حمل رشيدة، وقد أُعتبر ذهابي في ذاك الصباح الباكر إلى المدينة بعد أن تركت عمتي زعل وابنتها رشيدة في الحقل تلك الليلة، هروباً من الفضيحة، ودليلاً قاطعاً على أنني الفاعل!!

وهكذا.. دخلت حياتي في مرحلة أخرى من القلق وعـذاب الضمير، والصراع مع الواقع وأهله..

- ٩ -

وصلت متأخراً إلى البلد، بعد عنـاء طويـل في البحـث عـن تلك القطعة.. ودّعت صديقي الـذي اتهمنـي – بعـد ذلـك – بالكذب والهلوسة، قائلاً فيما يشبه العتاب: لـن أُصـدّقك بعـد الآن يا حمادة.. الكذب كالثلج، لا بد أن تذيبه نار الحقيقة يومـاً ما..

وهكذا، عرفـت شـيئاً عـن الـصدق، وأشـياء متنوعـة عـن الحقيقة.. فمن يكن صادقاً عـلى الـدوام ويكـذب لمـرة واحـدة يقل عنـه النـاس: إنّـه كـذّاب.. البـشر يـرون ظـلال الأشـياء ويهتمون بها أكثر من اهتمامهم بالأشياء ذاتهـا، ذاك هـو مجتمـع البشر، مجامل، تافه، لا يمكن الاندماج فيـه والعـيش بداخلـه، إذا لم تـتقن فـن الخـداع والمجاملـة، والتـبجّح، والتّمـسّح والادعاء، بما لا تعـرف، والكـذب عـلى نفسك في كثـير مـن الأحيان في سبيل إرضاء رؤسائك، والحقيقة منبوذة، مكروهـة، وغير مرحّب فيها.

ولا أدري لماذا غيّر صديقي رأيه فيّ هذه المرة، واتهمني بالكذب، رغم أنه كان دائم الوثوق بأفكاري وأعمالي.. حيّرني رأيه المفاجئ، وتمنيت لو أنه صدّقني في هذه المرة فقط، وليكن كل ما كان بيننا من صداقة وأحاديث ورحلات كذب وخداع.

- ٢ -

كان ابن عمتي يكبرني بحوالي سبع سنوات، ضخم طويل، له أنف أفطس كحبة بطاطا منتفخة، وكفّان كخفّي جمل، ورأس يبدو أنه خُلق ليكون على غير ذاك الجسد.. أمسكني من يدي كأنه يمسك بفرخ دجاجة.. لم يكلمني.. مشيت معه مدهوشاً لعدة أمتار.. لكنني وقفت فجأة حين سمعت صوت السيارة التي نزلت منها منذ قليل وهي تتابع السير نحو بلدة أخرى:

- ماذا حدث؟ لماذا تجرّني هكذا؟!

- ماذا حدث؟! وهل تجرؤ على أن تسأل، يا عديم الأصل، يا ناكر الخبز والملح، أمي تقول عنك إنك صغير.. يا حرام.. ولد صغير!!...

ـ لا أفهم ماذا تعني بكلامك، هيا، اشرح لي؟!

ضغط أكثر على يدي كأنه يخاف من هروبي وفراري نحو الحقول، جرَّني بعنف من دون أن يجيب.

وبالفعل، كنت في حالة ذهول لما يحصل لي، والشمس تميل نحو رؤوس الجبال القريبة، تاركة خيوطاً من ظلال الأشجار وهامات الهضاب، والبيوت تمتد وتنبسط هنا وهناك كأنها تستريح من عناء النهار، وحين خطر في ذهني التمثال حزنت واستسلمت لتلك اليد تاركاً إياها تقودني كنعجة تُساق إلى المسلخ.. لا بد أن ذلك كان جزاء ما أضعته، كانت أفكاري التي حاولت إنقاذي وإنقاذ أهلي وتحسين معيشتي من بعد بيع التمثال، هي نفسها ما يعذبني الآن ويُعاقبني..

ها هي رؤوس الأشجار تتمايل هناك.. وترقص ربما حزناً على مصيري، أو فرحاً لهذه النهاية، ولا أدري لماذا تذكرت امرأة عمي.. يا لها من امرأة.. لقد تمايلت كثيراً، ورقصت حتى تعب الرقص في جسدها، وبكت في الوقت ذاته، حتى جفّت الدموع في عينيها، وفي لحظة ما، انهارت على نعش ابنها الشهيد وهمدت.

لعل الحزن الـشديد يجعلـك تـرقص وتـضحك، أو الفـرح الشديد يجعلك ترقص وتبكي.. وفي كلتا الحالتين تماماً هنالـك تمايل واهتزاز، هنالك حركة ورقص، كأن لغة الجسد خُلقت لتترجم الحزن والفرح، الموت والحياة.

أدخلتني عمتي زعل إلى غرفة المؤنة، حيث أكيـاس القمـح والشعير ما تزال أكف الرجال واضحة عليها، تلـك الأجـساد التي حصدت الموسـم وحملتـه إلى هنـا، كافأتهـا الأكيـاس بـأن احتفظت بملامحها عليها، مرسومة بدقة، فهنـا ظهـر أحـدهم، وهناك أصابع أخر، وعلى ذاك الكيس في الزاوية ملامـح لرقبـة حمّال وركبة مجهول.

أغلقت عمتي الباب، ثم استدارت نحوي:

- اسمع يا حمادة.. نحن أهل، ولا نريد فضائح، قلـتُ لـك ووعـدتك أن تكـون رشـيدة لـك، أعطيتـك كلمـة، كـان مـن المفـروض والواجـب أن تحـترم الوعـود.. مـن جهّتـي أنـت معذور، فربما حبّكَ لرشيدة دفعكَ لتفعل ما فعلت..

كانت تـتكلّم كأنهـا متأكّـدة مـن كـل مـا جـرى، وكـل مـا سيجري.. كأنها ساحرة توضّح بكثير من المعرفة حقيقة غابـت

عن ذهني، فلم أفطن لوجودها، في البداية وجدتني أصيخ السمع كطفل يريد معرفة لغز ما على وشك أن تُفَك طلاسمه، وتتكشّف أسراره..

ولا أعرف كم استمرّ وعظ عمتي، الذي أدخل العادات والتقاليد وألسنة الناس في الموضوع الذي أحضرتني لأجله.

ها أنا الآن، في نظر عمتي، لا أساوي قشرة بصلة، أو بقايا كومة من النفايات، لقد مُحيتُ من فكرها ووجدانها، ولم أكن عند حسن ظنّها، وهي تحاول أن تمنحني فرصة أخيرة، بينما رحتُ أردّد بصوت كله دهشة واستغراب:

- أقسم لك.. لستُ أنا.. بماذا تريدينني أن أقسم؟

- يا حمادة.. رشيدة لا تكذب، تقول أنك من أجبرها على فعل ذلك..

- أنا.. أعوذ بالله.

- لا نريد أن تكبر الحكاية.. بالنسبة لأولاد عمّتكَ أقنعتهم بأن يسامحوك بشرط أن تتزوّج رشيدة.

- ورشيدة؟

- ما بها؟ !

- موافقة؟

- طبعاً.

قلت مستفسراً عن موقفها السابق من الزواج: لكنها أكّدت لي أنها تكره الزواج، خصوصاً من الأقارب.

- صحيح.. كانت تكره..

انفتح الباب قاطعاً حديثنا، وأطل منه ابن عمتي بوجهه العابس، كأنه لم يغسله طوال حياته، حدّق بي، ثم سمعت صوتي يصرخ:

- بشرفي.. أقسم لكم إنني لم أفعلها.. أقسم لكم..

- والقرد الذي في بطنها، من أين جاء؟ ! ها؟.. من أين جاء؟؟

أجابني ابن عمتي مؤكّداً لي فعلتي الدنيئة، غير المتوقّعة أبداً.

- ١٠ -

بعد ثلاثة أيام استيقظت لأجد نفسي ممدّداً فوق فراش سميك، دافئ، وإلى جانبي كانت رشيدة بجسدها الطويل الناضج كأرغفة خبز طازجة، الطريّ الناعم كزغب العصافير.

لم أكن أتوقّع أن يحدث معي، ما حدث حتى في الحلم.. فها هي رشيدة، الفتاة القاسية، ذات الملامح المعجونة بتراب الحقول وروائح القمح والحمص والشعير، ها هي تنظر إليّ وتبكي، ربما فرحة بي، أو مشفقة علي، أمسكتْ يدي وسحبتها، ثم طبعت عليها قبلة ممزوجة بدموعها المالحة، كأنها تريد أن تعتذر عمّا حصل، وتفتح صفحة جديدة بيننا محاولة جعل هذا الصباح نقطة البداية.

كانت تكبرني بحوالي أربع سنوات، أمّا أنا فقد كنت نحيفاً، وأصغر حجماً من رشيدة بقليل، أسمر الوجه، وممصوصاً كبرتقالة رماها ولد جائع بعد أن أشبع نهمه منها.

وفجأة اكتشفت أنني أصبحت زوجـاً، وأحمـل عـلى عـاتقي مسؤولية إطعام من سيقضي بقية عمره معي، وإلى جـانبي، إنـما في الوقت ذاته كنت مصمّماً على متابعة دراستي، خصوصاً بعد حصولي على كتب الشهادة الثانوية من أحد رفاقي، وقد أبدت زوجتي تفهماً واضحاً لتصميمي، فـشجعتني، وشرعـت تـزرع حقولي بالشموع والأنوار، فالأمل الذي ستمنحني إياه اليـوم، سوف يتحوّل في السنوات القادمة إلى نور حقيقي يضيء حياتنا ومستقبل أولادنا.

وهكـذا بـدأتُ أعمـل في النهـار، وأدرس طـوال الليـل.. ولم يمـض عـلى زواجنـا ثلاثـة أشـهر حتـى حـدث تغـيّر مفاجئ، قلب مشاعري وحطّمها كـما يـتحطم الفخّـار في أيـادٍ عابثة.

اختـصرت رشـيدة مراحـل كثـيرة في حيـاتي وأحرقتهـا، لم تمنحني الوقت كي أحبّها أكثر، أو أثبت لهـا مـدى قـدرتي عـلى تحمّل مسؤولية هذا الزواج، كان جسدها بين يدي، أمّا روحهـا فقد كانت تُحلّق في مكان ما، بعيداً عني.

في البداية لم يصدقني أحد، أو بالأحرى، لم أستطع أن أقنع حتى أقرب الناس إلي، عمتي.. بأن الذي تحمله رشيدة داخل بطنها ليس مني، وإذا لم يصدّقك أحد فأنت مضّطر إلى التظاهر بتصديقهم، وإيهام نفسك ومحاولة إقناعها بما آلت إليه ظروفك، فالمصير الذي يصيب البعض، ليس بالضرورة أن يأتي مصادفة، يمكن أن يكون قد خُطّط له، لإصابة فلان من الناس دون سواه، كما خُطط لمصيري مُسبقاً.

في ذاك الصباح، استيقظت فلم أجد رشيدة إلى جانبي.. كانت هنالك فوق وسادتها ورقة مطوية بعناية، كأنها الورقة الأخيرة في حياة رشيدة، فضضتها وأنا أرتجف: «حمادة.. أنا أتعذّب كثيراً، ليس لأنك غير أهل لأن تكون زوجاً صالحاً، بل لأنني دخيلة على حياتك الوادعة، وأشعر بأنك تنظر إليَّ بعين الشفقة والعطف، أنت لم تتوقع يوما ما أن أصبح زوجتك، لكن الطريق الذي يرسمه المرء لحياته ليس بالضرورة أن يكون ذاك الطريق الذي تمنّاه، هناك أمور أقوى بكثير من التّمني، والواقع

دائماً يمسك بأقدامنا، بينما رؤوسنا تحلم هناك بين الغيوم والجبال العالية، فإن أحلم بشيء، وأن أعيش وأحيا شيء آخر..

أنا مضطرة لأن أتركك.. لا أريد لأحد غيري أن يتحمّل مسؤولية عملي، لقد صنعتُ معك معروفاً ذات يوم، وخلّصتك من أنياب الوحش.. أتذكر تلك الليلة.. حسناً أرجو أن ترد لي معروفي ذاك وتطلّقني على الملأ، وتُعلن انفصالك عني أمام الجميع».

كنتُ قد بدأت أحب رشيدة أكثر مما مضى، وأفكر بطرق عديدة لإدخال السعادة والبهجة إلى حياتها، حتى ولو كانت على حساب حياتي، لقد جاءت لحظة ما من لحظات اجتماعنا فوق سرير واحد اقتنعت فيها أن رشيدة أصبحت لي إلى الأبد، ويجب عليَّ من الآن فصاعداً أن أبني لها أحلاماً على أرض الواقع، كل حلم جميل في ذلك الحين كان يبدو لي كعصفور عنيد يجب اصطياده بأي ثمن، وتقديمه إليها.. لقد حاولت بذلك أن أُبعد العار عن العائلة، وأن أمنح حبّي لرشيدة نوعاً من أنواع التّحدي، مثبتاً لها

صدق نواياي، حبي لهذه المخلوقة هو ما جعلني أفعل كل ذلك، «إن الحب أقوى بكثير من العار، لكنه - مع الأسف - لا يدوم، في حين يبقى العار إلى الأبد».

بدت رشيدة في بداية زواجنا زوجة طيبة، راحت تعاملني معاملة خاصة، وخلال الأشهر الثلاثة التي قضيناها تحت سقف واحد لم أسمعها قط تشكو من شيء، كل ما كان يبدر مني بالنسبة لها كانت تراه أكثر مما تستحق... كانت تعتبرني قدّيساً صغيراً، أو رسولاً أنقذها من الذبح، وأنقذ سمعة أهلها، فكنت أشعر في كل صباح أنها تسعى جاهدة لتكافئني على مروءتي وتضحيتي من أجلها، لكنها لم تستطع الاستمرار، الرسالة التي تركتها فوق الوسادة توضّح ذلك، وربما تنقذني وأهلها من بئر الوحل الذي كاد يبتلعنا جميعاً في يوم ما...

إذن، كانت رشيدة تتحمّل مرارة العيش معي، وتحيا على مضض، حتى قررت أخيراً أن تتركني بسلام، دونما ضجة، وتطلب مني أن أعذر تصرفها هذا، وربما ترجو أن أسامحها.

حملتُ الرسالة وذهبت إلى منزل عمتي، كانت جالسة قرب الباب، تشرب المتة، وحين شاهدتني وقفت فجأة وتسمّرت في أرضها، كأن حريقاً ما هبّ في صدرها وحوّلها في لحظة سريعة كالبرق إلى كومة رماد.

لم أجمع أولاد عمتي أو الأقرباء لأعلن عليهم الفضيحة، بل قلت فقط لعمتي أن تتبعني إلى الغرفة نفسها التي جرَّتني إليها قبل ثلاثة أشهر، أنا من أغلق الباب هذه المرة، بينما جلست عمتي قبل أن أبدأ الكلام أو أسحب الرسالة، جلست تبكي، وتشهق، كأنها تغرق في البحر.

تراها كانت تعرف!؟ قلت متسائلاً:

لماذا تبكي يا عمتي.. خير إن شاء الله؟!

حدّقت في وجهي، كأنها اكتشفت مكري وخداعي، ثم سألتني:

- حمادة.. هل حصل لرشيدة مكروه.. هل قتلتها؟

- أعوذ بالله..، لماذا أقتلها، اطمئني، رشيدة بخير، لا شك أنها بخير لكنها هربت، استيقظتُ في الصباح ولم أجدها.

كنت أتوقع من عمتي أن تصرخ وتنتف شعرها الأشيب، أو تنهض كالمجنونة وتخبط رأسها بالحائط حتى يشج ويسيل الدم منه، لكنها أخفت وجهها بين يديها وازداد نحيبها، كأنها كانت تخجل من مواجهة نفسها إذا نظرت إلي، ورأت صورتها داخل عيني.

- اسمعي يا عمتي.. اسمعي جيداً، وافتحي أذنيك.. قلت لكم من البداية لستُ من فعل ذلك.. فلم تصدقوا.. ولكي لا تكبر الحكاية تزوجت ابنتكم لأخفي هذا السر، ولأنقذ وجوهكم من الطين والبصاق.. تفضلي، انظري ماذا تركت لنا، رشيدة كذبت عليّ يا عمتي، بل عليكم جميعاً، والمشكلة أنكم صدّقتم كذبها ولفّها ودورانها.. وأنا الآن أعلن طلاقي منها وانفصالي عنها إلى الأبد، بلّغي ذلك لأهل البلد، لم تكن رشيدة تحب سوى نفسها، حتى أنت يا عمتي، كانت رشيدة تتمنى لك الموت أحياناً..

أخذت عمتي الرسالة من يدي وانهارت على الفراش، وأخذ جسدها يضطرب ويرتجف كطائرة الأولاد الورقية، ومن بين دموعها وشهقاتها سمعتها تردّد:

- كنتُ أعرف ذلك .. الله يقصف عمرها، كنتُ أعرف .

كل ما يتعلمه المرء في حياته يجب أن يستفيد منه، فما معنى تعلمنا إذا لم نستفد من ذلك العلم، كرجل أمضى شطراً من حياته في تكوين مزرعة للخيول الأصيلة ليستمتع بركوبها، وفي يوم الاحتفال أُصيب الرجل بشلل نصفي أقعده فوق كرسي متحرّك، تلك هي تجارب البشر، يجب أن نتعلّم من تجاربنا، ونطبقها على حياتنا قبل أن نصاب بالشلل، ويفوتنا القطار .

وهذا ما حدث معي .. رحتُ أركض مع الزمن وأسابقه مستفيداً من تجارب قليلة، مشلولة أصابتني، محاولاً ترميم انكساراتي الماضية وتصليح عجلات مركبتي لأنطلق من جديد ..

فسحت لي الحياة وقتاً كافياً لمتابعة دراستي، خصوصاً بعد هروب رشيدة .. واخترت في فترة ما من حياتي أن أكون رساماً، أرسم مشاهد الطبيعة بتجاربي القليلة، فإن استطعت أن أغيّر شيئاً في الواقع، وإلاّ فربما أتغيّر أنا ولو قليلاً .

- ١١ -

كم بودي، أن أكتب . وبسرعة . كل شيء خلال جلسة واحدة، كم أتمنى أن أبوح بذاك السر الذي زارني فجأة، كضيف طارئ، كم أودّ أن أعترف الآن، ليس خوفاً من الرحيل فجأة، بل حبّاً بهذه الحقيقة التي شغلت عائلتي، وشغلتني .

فأنا اليوم في السابعة والثلاثين من عمري، أعيش في جو من العزلة والقلق والترّقب، ولا أزال أقطن منزلنا المتواضع القديم بعد رحيل جميع أفراده منذ فترة بعيدة .. ومنذ حوالي أربعة عشر عاماً تخرجت من معهد إعداد المدرسين، وأعمل منذ ذلك الحين في تدريس مادة الرسم لطلاب المدارس داخل بلدتي ..

لم أتزوّج رغم إلحاح هذه الفكرة باستمرار على خاطري، ليس انتقاماً من نفسي، أو حُبّاً لذكرى رشيدة، إنما دولاب الحياة أخذني معه، فرحت أركض وأدور، متأكداً من أن

الوقوف ربما يودي بمستقبلي، فعجلة الحياة قوية، ومصنوعة من الفولاذ، في حين أن أقدامنا خُلقت من لحم وعظام، أشبه بالخشب وقوالب الجبس.

لا وقوف مع الحياة، فأعمارنا القصيرة هي بأشد الحاجة إلى الاستفادة منها قبل نفادها، كعلب الخضار المحفوظة، يجب أكلها قبل فساد محتواها.

فجأة وجدت نفسي وحيداً بين الناس.. وعندما يصل أحدنا إلى عمري الآن، يصعب عليه اختيار الشريك، خصوصاً وأن مزاجي اختلط بعشرات الكتل من الوحل والكآبة والحزن، وهو بحاجة إلى عمر آخر ليصفو ويروق.

يصعب عليّ جداً الآن اختيار من سيتحمّل ذلك المزاج، وتلك الخصوصية في حياتي وطقوسي، مزاج ليس بسيئ، ولا بجيّد، بين بين، لا هادئ ولا صاخب، لكن حزين وكئيب دوماً، ومتقلّب كثيراً، بل لا يستقر على حال..

ويبدو أن جميع الأشياء والتعاليم، والمعادلات التي تعلّمتها خلال أيامي ظلت في عالم النظريات، ولم تسنح لي الفرصة لتطبيقها على حياتي، كل ما تعلمته، علمته للآخرين، دون الاستفادة إلاّ من الشيء القليل، جميعهم يدركون أن في رأسي معملاً للأفكار المذهلة، وأملك نهراً من الملاحظات الذكية، لكني أعجز عن الاستفادة من كل ذلك، تلك هي الطامة الكبرى.

-١٢-

لو أنه ذكر اسمي لكنت الآن والله العليم لا أدري أين... لقد نفعني في شيء وضرّني في أشياء، ذلك هو صديقي مروان الذي ذهب معي في تلك الأمسية.. لقد بحثنا إذ ذاك كثيراً عن قطعتي المذهبة، تعبت أقدامنا، وأُرهقت أعصابنا، عدنا للبحث مرة ثانية، وثالثة، دون جدوى..

وحين علمت الخبر تجمّد الدم في قلبي وعروقي.. وأحسستُ بأنني لم يعد لي وجود، لم أطر وأحلق في الفضاء، بل

هويت وتحطّمت أجنحتي، وانهرت ككومة قش أشعلها عود ثقاب صغير.

في العاشرة والربع من يوم الخميس، مساء، بدأ العمل، وصباح يوم السبت استيقظت البلدة على مولود جديد من الاسمنت.. لقد عاد مروان من لبنان، ومعه ثروة لا تقدّر أو تُعد.. غاب عن البلد حوالي سبع سنوات، وذاك كان باعتقاده كافياً لإقناعنا وإقناع عيون الحاسدين.

وفي الأسبوع الذي يليه حضرتُ عرسه..

وبعد شهر تقريباً اشترى سيارة كبيرة، وشرع يستثمرها بين البلد والعاصمة.

أسئلة كثيرة، وشائكة كانت بانتظار صديقي، الذي فضح أوراقه في جلسة واحدة، العمل الجيد والمثمر يجب أن يُبنى بهدوء لكي يدوم ويبقى.. إنما مروان أسرع في صعود القمة، وها هو ينزل إلى أسفلها بأسرع مما وصل..

حين قُبض عليه لم يذكر اسمي إطلاقاً، قال إنه وجد تلك القطعة المذهبة منذ سبع سنوات في إحدى مغاور القلعة، ومن خلال ما سمعت اكتشفتُ شيئاً أقرب إلى العبث والمشاكسة منه إلى الخيانة والاحتيال..

حينذاك ابتعد مروان.. أذكر ذلك جيداً.. قال فجأة:

- سأعود، مثانتي ستنفجر..

غاب لأكثر من ربع ساعة، ثم عاد معفّراً بالتراب، لقد وجد القطعة، وأخفاها عني، واتهمني حين نزلنا في ساحة البلد بالكذب والهلوسة ليُبعد الشبهة والريبة عنه..

وعاد إلى تلك الحفرة بعد أيام، ليخرج الكنز، ثم ذهب إلى لبنان ليعمل.. لقد كان ذكياً، إنما ذكاؤه كان له جدران، وسقف، وخطوط لا يمكن أن يتعداها، لكنني أسامحه اليوم على خداعه ونفاقه، أستطيع أن أفعل ذلك بسهولة، ولا أعتقد أنني أحمل له أية ضغينة، وفي الوقت نفسه ألعن الظروف، واليوم الذي عرفته فيه، لقد أفادني في شيء، وضرّني في شيء

آخـر .. أخفـى اسـمي وعلاقتـي بالقطعـة المذهبـة، وبالمقابـل أفقدني ثقتي بكل مخلوق، حتى بنفسي.

التاجر الذي ابتاع القطعة وشى بمـروان، وهكـذا .. وأثنـاء شهر عسله، قبضت الشرطة عليـه كـما تقـبض الهـرة عـلى فـأر صغير.. وأُودع السجن..

ومرّت السنون.. وانفجر ذات صباح سرٌّ آخر..

سرّ كاد الزمن أن يهضمه، ويرميه كجيفة، ها هو يعود اليوم كنجم ظهر فجأة في السماء بعد غياب طويل.

الأسرار الكبيرة، والخطيرة، تُفجّرها أحاديث عابرة، وكـلام عفوي بسيط، وأنا اليوم في الـسابعة والثلاثـين، أشـعر كـأنني وصلت إلى هذا العمر في ليلة وضحاها، وكأنني على موعد مع الماضي البعيد، الماضي الذي أوصلنا إلى الحاضر، فمعظم الناس لا يـشعرون بالمـاضي إلاّ إذا حـصلت في حـاضرهم حـوادث فظيعة، تغيِّر مجرى النهر الذي يسبحون فيه.. ثم فجـأة يجـدون أنفسهم دون قارب نجاة.. في خضم النهـر تحملهـم مياهـه إلى المجهول..

ذلك ما حدث معي..

فجأة اكتشفت حقيقة عمري، وفجأة عرفت أن الحياة دون أسرار ومفاجآت لا يكون لها معنى، ولا تغيّر شيئاً في أعماقنا، الأسرار بالنسبة للطفولة هي ألعابهم، والطفولة تفقد الكثير من معناها إذا حُرمت من الدمى.. أما الكبار فإن المفاجآت والأحداث، هي التي تغير مجرى حياتهم، وتجعل لها طعماً ومذاقاً خاصاً..

إنني أشعر اليوم بالخزي والعار، وأدرك أن هنالك بقعاً سوداء، عفنة نمت تحت جلدي، وها هي تطفو اليوم كجثث تقيأها البحر، ليتني بقيت جاهلاً، ليت السرّ الذي انفجر في وجهي فجأة وأدماني ظلّ مدفوناً هناك، هناك خلف الجبال والشمس والقرى النائية.. «إن الجهل يصبح نعمة أحياناً، مثله مثل النسيان».

ما حدث في حياتي اليوم، كان كفيلاً بأن يغيرني، ويصنع من أعصابي حِبالاً مرنة وقاسية في آن، كسمكة ناعمة، لكنها على

الـرغم مـن نعومتهـا فإنهـا قـادرة عـلى أن تتحمّـل ضـغوط المحيطات وأعماق البحار، فمهـما غاصـت فيـه تبقـى صـامدة قوية..

كـان ينبغـي لي أن أكـون كتلـك الـسمكة، لكـن أعـصابي شرعـت تتلـف بمجـرد مواجهـة الحقيقـة «إن الحقـائق التـي نمتلكها في أعماقنا هي أهم بكثير مـن تلـك الحقـائق الظـاهرة، فالخفية تُغيّرنا، والظاهرة تخدعنا..».

كل ذلك لن يفيدني الآن بشيء، ولن يفيدني إذا لم أفد نفـسي من تجاربي، العلل ومشاكل الوجود كامنـة في أعماقنـا، والعـالم بأسره نائم في أنفـسنا، ومـا علينـا إلاّ الـصراخ، ليـستيقظ مـن سباته.

لكن من لا يملك فماً ولا لساناً كيف يصرخ؟!

هكذا أصبحت الآن، أبله، ذا رأس كبـير، تحوّلـت الأفكـار في داخلـه إلى قطـع مـن الإسـفنج والبلاسـتيك.. أبلـه عينـاه واسعتان، كبيرتان، لكن بصرهما لا يتعدى أنفه بقليل.

كان من المفروض عليَّ أن أذهب إذ ذاك لأبحث عنها..

ليس من الحكمة أن تهرب زوجة من منزلها ويبقى زوجها يندب حظه، ويستمع إلى نصائح الآخرين.. لكن عمتي كان معها حق من جهة أخرى:

- اتركها وأبحث عن مستقبلك، الله لا يردّها، هي من جنت على نفسها.

اقتنعت حينها وقلت في نفسي:

عمتي معها حق، من لا يرحم نفسه لا ينتظر الرحمة من غيره، رشيدة وقعت في الغلط مرتين، مرة حين حملت، والثانية حين هربت..

عندما أتذكر أحداث ذلك اليوم، أدرك في أعماقي بأنني لم أكن على خطأ أبداً، على الأقل في موقفي تجاه رشيدة، لكن رشيدة ربما كان معها حق هي الأخرى، كل منا يرى الحقيقة بعينه هو، رشيدة كان يزعجها أن تبقى كدمّلة قبيحة في وجه العائلة، ربما لذلك قررت الرحيل إلى أماكن أدركُ الآن أنها

كانت تُخطّط للهرب إليها . . أماكن بعيدة، كأنها بذلك كانت تُريد إخفاء انتفاخ بطنها عن عيون الشامتين . .

- ١٣ -

حطّ الرسّام الشاب رحاله شرقيّ البلد، ماذا جاء يفعل هنا؟ !

فبلدتنا عطشى، أقدامها مشقّقة، ولا تقوى حتى على حملنا، وأرضها جافة كجلد الماعز، لا تغري مسافراً بأن يستريح فوقها، ولو لساعة واحدة، وقد زاد من عطشها وجفافها تغيّر الزمن، وقلّة مساعدة الجيران لبعضهم البعض، وابتعاد الأهل وتفرّقهم كحبّات مسبحة انقطع خيطها . . الحب نادر هنا، والمودة تكاد تكون مقطوعة، وحبل الإخلاص قصير كحبل الكذب .

هكذا كنت أرى بلدتي بعد رحيل رشيدة، لقد غيّر هروب رشيدة من رؤيتي للعالم من حولي وزعزع ثقتي بالآخرين،

ورغم نجاحي في الحياة العملية، إلاّ أنه كان ينقصني الكثير من النجاح في ميدان المشاعر والحب.. وإذ أقف الآن بيني وبين نفسي متسائلاً عن المكان الذي هربت إليه رشيدة، وعن ابنها الذي لا شك أصبح الآن شاباً، وعن عملها، وحصولها على رغيف الخبز، يتبادر إلى ذهني جواب واحد، أحاول إقناع نفسي به: لعلها قد ماتت، أو انتحرت أو أحرقت نفسها في أحد خزانات الوقود.

لم يرد في ذهني أبداً احتمال آخر لمصيرها سوى الموت.. لقد ظنّت أن هروبها سيطفئ النار، ويخمد الجمر في الصدور.. ولم تكن تدرك بأن إخماد النار بحاجة إلى قطع الهواء عنه أوّلاً، رشيدة فعلت العكس، فهروبها منح حريقها الصغير رياحاً عاتية، أشعلت بيوتنا، وكوَّمت الجمر في صدورنا، طالما رضيتْ بالعار، فلماذا أرادتْ لحريقها أن يمتدّ أبعد من أشجار العائلة، وغابات البلدة؟!

- ١٤ -

ذات صباح، وجدت نفسي أشرب الشاي داخل خيمة الرسام الشاب، كان لديّ دائماً فضول غريب لمعرفة حياة الغرباء، وطقوسهم، وسر زياراتهم إلى القلاع والآثار والمعابد القديمة.. هناك سرّ أعمق من المعرفة، ربما يبحثون عن أنفسهم وأرواحهم، أو عن خلطة سحرية لخلودهم.

كنت أسألهم كثيراً، عن بلادهم وأسماء الرؤساء الذين حكموها، وعن مشاهير الكتاب والفنانين، وأحياناً تنعقد صداقة حميمة مع بعضنا فيبوحون لي ببعض خصوصياتهم.

لكن هذا الشاب جعلني.. ومنذ الجلسة الأولى معه أسحب حبل أسئلتي، لا شيء يجمعني به حتى اليوم، سوى هذه الألوان والفراشي ولوحات الكرتون.. يبدو أنه شغوف بهذه المادة، ولديه معلومات جمّة عن كيفية الرسم بالألوان، قال إنه طالب سنة أولى فنون جميلة، لقد جاء من العاصمة ليرسم قلعتنا السمراء، الصلبة، التي تصارع عوامل الزمن القاسية..

لا شيء أجمل من تعلّم خبرة جديدة، تضيفها إلى خبراتك الماضية.. هذا الشاب فتح رأسي وأصابعي على نوافذ عديدة كانت مغلقة، إنني على يقين تام بأننا نملك في أعماقنا كل الأبواب والنوافذ التي تقود البشرية إلى الفرح والنور، لكننا لا نملكُ المفاتيح، والمعرفة هي جزء من تلك المفاتيح السحرية، أما الجزء الآخر فهو الاجتهاد والمثابرة، والتجربة الدائمة.. المعرفة سلاح، يجب استعماله دائماً، كالفخ الذي يصطاد المئات من الذئاب والثعالب والأرانب البرية، دون أن نغيّره، بل نبدّل موقعه.

الألوان التي تعلّمتها من هذا الشاب، وكيفية مزجها لاستخراج ألوان غريبة، ساحرة، كانت نقطة تحوّل في رؤيتي للفن والحياة، أنا الرجل الوحيد المهجور، الضائع، يجد نفسه في غضون أسابيع قليلة أشهر من الشهرة ذاتها، لقد تعلّمت كيف أمسك خيوط اللعبة وكيف أحرّكها، أضحت أصابعي رشيقة، جبارة وقوية، تلعب بالريشة والألوان كما يلعب مهرج السيرك مع الأسود والحيوانات الضارية.

وشهرتي تلك مختلفة تماماً عن الشهرة المعروفة الواسعة الانتشار كمعرفة الناس لصورة وجهك، شهرتي لها معنى آخر في مفهومي واعتقادي، هي في أعماقي وكياني وربما ما يزال هذا المفهوم غريباً على مسمع أهلي ورفاقي.

روحي هي التي أصبحت شهيرة، وشهيرة جداً بالنسبة إلى بقية حواسي، فما تعلّمته من أساليب في مزج الألوان، واستخراج ذلك السحر العجيب فجّر موهبتي وأخرجها إلى عالم أحاسيسي وتصرفاتي، كانت أجمل وأسمى شيء أحصل عليه في هذا العمر، أكتشفه على حين غرة، كرجل فقير اكتشف في حقله منجماً للذهب والماس، كل لوحة كنتُ أرسمها كانت تلقى رواجاً لا مثيل له بين جماهير مشاعري وحواسي الأخرى.. فأحس بتلك الجماهير وهي تتحرّك وتصفّق في داخلي، وأسمعها تصرخ فرحة، سعيدة لنجاحي..

إلى أن جاء يوم وأخبرني فيه ذاك الطالب بأنني تماديت في اعتدادي بنفسي، وجاء الوقت لمصارحتي بأنني مصاب بانفصام الشخصية، وأنه مستعدّ لمساعدتي.

ـ أيعقل ذلك؟ ! أكون مريضاً دون أن أعلم؟ !

ـ أجل... إنه مرض نفسي يا أستاذ، وأنـت في بدايتـه، أمـي أصابها هذا المرض، لكننا عالجناها قبل أن تحسب نفسها أنها ملكة تدمر، أو أنها حاكمة البلاد السعيدة.

أحضر لي كتباً عديدة، قرأتها بسرعة كأكلة طيبة، لا مثيل لها في بلادنا.. ورويداً رويداً بدأت أتحسّن، وبدأت شهرتي تتراجع في عيون جماهير حواسي المتعبة.. جاءت مساعدته سريعة فأنقذتني من الشهرة الزائفة، بالرغم من أن النجدة المتأخرة قد تغرق الناس أو تحرقهم، لقد ظلّ وجه ذاك الشاب عالقاً في ذاكرتي «كدبّوس من الذهب»، وربما لن أنساه أبداً، ليس لأنه أنقذني من مرضي، وزودني بخبرات رائعة في فن الرسم، بل لأنه كشف لي ما نسيته، وما لم أكن أتوقّع تذكّره على الإطلاق!!

- ١٥ -

- ما ذا يعمل والدك؟

- رسَّام.

- إذن، أنت ورثت عنه هذه المهنة؟

- أبداً، الرسم لم يكن في يوم من الأيام مهنـة، إذا تحـوّل إلى ذلك يفقد بريقه وهدفه، الرسـم هـو فـن التعبـير عـن الـذات بالخطوط والألوان.

- طيّب.. كيف انتقلت إليك هذه الموهبة؟

- ليس بالوراثة، بل بالحب والرعاية الدّائمة..

أجوبته كانت تثير فضولي، وتدهشني، تفـتح في رأسي تلـك النوافذ والأبواب، وتضيئها بملايين الأضواء الملونـة، تمنحنـي فرحاً غامراً، وغبطة هي أعمق وأروع مـن تلـك التـي تـصيب العاديين من البشر..

وذات مرة أخبرني عـن أبيـه، وذكـر لي أنـه زار هـذه البلـدة ورسم قلعتها، وبعض وجوه الناس..

مرّ على بلدتي عشرات السّياح، بل المئات، منهم من أتذكر لون عينيه، ومنهم من أحسّ بأنه ما زال معي، عالقاً في تلافيف دماغي كقطر السكر، ومنهم من لا أذكره أبداً..

والد هذا الشاب كان من الطائفة الأخيرة، رغم وصف ابنه لي وصفاً دقيقاً، لم أصل إلى معرفة تقاطيع وجهه في ذاكرتي، لقد اختفى تماماً، كأنه لم يأتِ أبداً إلى هنا..

قال الشاب:

- لا بأس، ذاكرة البشر خوَّانة، وحده القلم من يبقى مخلصاً، وفيّا دون مقابل، الذاكرة مهما كانت جبارة، ستفقد قوتها ومرونتها مع الزمن، «الزمن مرض بطيء، يصيب البشر بالتعب والترّهل والنسيان».

مكث الرسام الشاب في بلدتنا حوالي شهر، كنتُ أزوره وأتردَّد عليه باستمرار، لأطلع على آخر لوحاته، ولأتعلّم منه خفية مهارات حديثة، وأفكاراً جديدة..

كنت لطيفاً معه، مهذّباً، لا أتدخَّل في خصوصياته، وما كان سؤالي عن والده إلاّ في سياق الحديث، لم أقصد أبداً الدخول إلى عالمه الأسري الخاص، إنما بدأت أشعر أنه يعنيني أكثر من الذين مرّوا من هنا.. فرحتُ أسأله، محاولاً أن تبقى علاقتنا حتى بعد ذهابه، أسئلة توحي له بما كنتُ أفكّر..

حتى ذاك الوقت، أي في الأسبوع الأخير من مكوثه في البلدة، لم أكن أعرف عن أسرته، سوى القليل القليل.. لم يعارض أسئلتي، بل رحّب بها، ودعاني إلى أمسية خاصة، ليقص عليّ حكايته..

- ١٦ -

كان القمر كرغيف من الثلج الناصع البياض، يبرق ويلمع كأنه مسكن لكثير من النجوم المتلألئة، وكنا قد جلسنا قرب الخيمة، وأمامنا هناك، كانت القلعة منتصبة، ترفض الجلوس كالأشجار التي تموت وتبقى واقفة، والبلدة همدت حركتها،

حتـى الكـلاب كفـت عـن النبـاح بانتظـار سـماع الحكايـة الغامضة..

- أسرتي يا صـاح مكوّنـة مـن ثلاثـة أفـراد، إضـافة إلى أبي وأمي.. أختي الصغيرة ما تزال في المرحلة الإعداديـة، والثانيـة على أبواب دخول الجامعة، وأنا طالب سنة أولى في كلية الفنون الجميلة.. دقيقة..

قال ذلك، وقفز كأن عقرباً لسعه، دخـل الخيمـة، ثـم عـاد ومعه عدة صور، ناولني واحدة وسألني بشيء من العتب:

- تذكّر.. هذا أبي، قلتُ لك إنه جاء لزيارة هذه البلـدة منـذ زمن بعيد.

تأمّلته جيداً.. رجل في الخمـسين مـن العمـر، شـعره أنيـق، وعينـاه كبيرتـان، طيّبتـان، خرجـت في تلـك اللحظـة ذاكـرتي لتبحث عنه، في حين لاحظتُ بين الحلم والحقيقة كيف تركنـي الشاب ودخل ليحضر الشاي..

وضع الصور إلى جانبي داخل ظرف أسـمر كبـير، هـا هـي ذاكرتي تحلّق في شوارع البلدة عائدة إلى الماضي البعيد عـشرات السنين .. ترفرف كعصفور أضاع أمه، تركض هنا وهناك، فوق الأماكن التي خيّم فيها الناس الذين مرّوا أمام القلعة ..

فجأة توّقفت ذاكرتي في ذاك النهار .. أجل .. حينذاك جاءت رشيدة في الصباح، وطلبت مني أن أذهب معها إلى ذاك الرجل الذي نزل شرق البلد منذ عـدة أيـام، لإحـضار صـورنا التـي رسـمها فرفـضتُ ... سـحبتْ مـن داخـل صـدرها الـصور وصاحت فجأة :

- لقد كذبت عليك، ذهبت وحدي وأحضرتها .

صـورتها المرسـومة كانـت مذهلـة حقـاً، كأنهـا هـي ذاتهـا الأصل، ورشيدة الصورة .

- هل رسمها أم طبعها على الكربون؟ !

ضحكت رشيدة، ولسبب ما نصحتني أن أصبح رساماً، ثم ضحكت، وأخفت الصورة داخل صدرها وركضت ..

أجل .. ربما في ذلك الوقت حدثت القصة، عادت رشيدة إلى ذاك الرجل لإحضار صورنا، فأغراها وحدث ما حدث .. لاشك في ذلك ..

كل ما حدث معي الآن لم يجعلني أرتجف أبداً، حتى حين جفت بحيرة بلدتنا منذ عدة سنوات، واكتشفوا في قعرها صندوقاً خشبياً استعمرته الطحالب والأعشاب، وحين فتحوه وجدوا بداخله جثة خالتي، لقد قتلها أبي، ودفن جثتها تلك الليلة في صندوق خشبي أحكم إغلاقه، ورماه في أعماق البحيرة بعد أن أثقله بالحجارة، وأعلن أنها هربت ..

كل ذلك لم يجعلني أرتجف ..

لكن .. وفي هذه الدقائق القلقة المشحونة بالشك والتوتر والقلق أجد جسدي يرتجف، كورقة يابسة في يوم كئيب عاصف .. أحاول ضبط أعصابي، لعلني أصل إلى شيء من تلك الحقيقة التي عذبتني ولا تزال .. أحاول ربط الخيوط بعضها ببعض، لأجعل منها شبكة تصطاد الحقيقة الهاربة مني،

كما تهرب الأسماك من الشباك، وتنزلق من بين الأصابع.. فلا أفلح..

عاد الشاب إليّ بعد قليل، جلس قربي صامتاً، مرتبكاً.

سألته مستغرباً:

- ما بك؟

- سوف أرحل غداً، هل تعدني أن تزورنا؟

- طبعاً.. طبعاً.. هذا ما أتمنّاه.. هيا أعطني عنوانك.

سحب من حقيبته القماشية ظرفاً محكم الإغلاق وعليه العنوان بالتفصيل، وضعه في حقيبتي قائلاً:

- هذه ذكرى مني.. الأشياء الثمينة هي التي يجب أن تُهدى، وهذه الأشياء غالية على قلبي..

حين ودعته وعدتُ، بكيتُ في الطريق.. لقد علقت محبة هذا الشاب البسيط، الطيب في قلبي، كما تعلق العصافير على قضبان الدبق الخضراء.. إن البشر الذين نتعلّم منهم يصعب علينا نسيانهم، حتى ولو ظلّوا بعيدين عنّا.

في المنزل فضضتُ الظرف.. كان بداخله ورقة مكتوب فيها العنوان بالتّفصيل، إضافة إلى صورة كُتب عليها:

الصورة لأُمي، رسمها والدي حين زار بلدتكم.. قبل عشرين عاماً.. قلبتُها بذهول.. وأنا لا أصدّق ما أرى.. غير معقول.. لا يمكن.. مستحيل.

خرجتُ مذعوراً.. هائماً على وجهي..

ها أنا أركض وأركض.. وتركض معي صورة رشيدة وكأنها تطاردني كما طاردتني من قبل.. أراها الآن أمامي، تطفو كجثة قديمة لفظها البحر، ثم رمتها الأمواج على شواطئ ذاكرتي المنخورة، المريضة بالأحزان والهزائم.

* * *

وجع الانتظار

حزينٌ ومقهور..

كحقل قمح استيقظتْ سنابله الذهبيّة على أسراب الجراد، بدل أن تفيق على قطرات النّدى وزقزقة العصافير.

حزين ومقهور..

كغيمة اشتعل البرقُ فيها دون أن يخصبها، وكأمٍ عجوز مازالت تنتظر عودة أولادها الذين رحلوا عنها عنوةً منذ أكثر من أربعين عاماً.

حزين كتفاحة عرفت أن بداخلها دُودة تنهشها وتَفتِكُ بها في صمتٍ وهدوء.

كئيبٌ وذليل، كسيفٍ وحيدٍ علاه الصدأ، إذ لم يُجرّد من غمده منذ زمن بعيد..

يملأُ العفن روحي، ويأكُلُني سأم الانتظار، التوتْ أضلاعي وتقوّستْ في داخلي، وهي الآن على وشك القضاء عليَّ ببطء.

حزينٌ أنا هذا المساء ومقهور، فقد انتظرتُها ولم تأتِ، وقد لا تأتي أبداً!

لماذا أخبرتها عن كلّ ذلك؟!

لما لم أُخفِ جُرأتي وبوحي المكسور كقصبة ناي؟

أم تُرانا نحن الرجال في حاجة دائمة لأن نبوح بكلّ شيء، لأوّل حوّاء نقع في حُبّها؟!

ضحكتْ في البداية ولم تُصدّق؟

ظنّتْ ما قلتُه مزحة مقصودةً لأجذبها إلى قلبي المهموم، وأجعلها تتعاطف مع رجولتي المهزومة؟!

فاضتْ ضحكتها عليّ كنبعٍ عذب، وبدت شفتاها، وهي تبتسم، كجناحي فراشة حمراء، وعيناها نجمتان تبرقان في سماء وجهها المدوّر كبدرٍ صغير.

لكنها صمتتْ بغتةً، حدّقتْ بي وسألتْ:

ولماذا لم تساعدوا الحصان وتنقذوهُ؟! أكان ثقيلاً على أربعتكم؟!

- لا .

قالتْ مستغربة، وبحماس :

- إذاً لماذا لم تتعاونوا على إنقاذِه؟!

- لقد خشينا أن نغرقَ معه، فابتعدنا .

بحزنٍ وانكسار، جاءني صوتُها ليزيد غُصّتي غُصَّات :

قصدكَ أن تقول هربتم؟

قالت ذلك وسكتتْ .. بدأ شيء ما يحترق بداخلي ويتحّول إلى جمر .

ثم انتابتني غُصّةٌ أخرى، وأخرى عَلِقتْ في حلقي ولم ترغب بالخروج، حاولتُ ابتلاعها فدمعتْ عيناي، ولم تنزل في جوفي، بقيتْ عالقة في حلقي، ولا تزال .

* * *

لم يكن لأحد أبداً أن يتوقّع ما حدث ..

في حرّ الصيف، وقت الحصاد، اكفهرت السماء فجأة من فوقنا، وبدأ قصف الرعد، واشتعال البرق ..

رياح عاصفة ملأت الدنيا من حولنا .. ثم تلتها زخّاتٌ من مطر ساخن، ما لبثْ أن تحوّلت إلى حبالٍ غزيرةٍ جعلتْ أرضنا تفيض بالوحل ..

بصعوبة سمعنا أبي ينادي علينا ..

نزلتُ مع أخي الصغير عن ظهر حصاننا، وصعدنا مع أبي وأختي الكبيرة الأشجار القريبة من حولنا، بينما بقي الحصان ينظر إلينا حائراً ..

لكن حيرته ما لبثْ أن انقلبتْ إلى ذُعر وخوف، حين بدأتِ الأرض تسيخ من تحت قوائمه وتبتلعه، وتجرّه بهدوءٍ إلى جوفها ..

حاول المسكين، بكلّ قواه أن يقاوم لينجو .. فراحت قوائمه تتخبّط في الطين دون جدوى .. ثمّ ما لبث أن ابتلعته الأرض واختفى تماماً عن أنظارنا ..

ومـا زلـتُ أذكـر عينيـه الواسـعتين المـذعورتين، الحـزينتين كحزني الآن، وهما تنظران إلينا طالبةً بصمت المساعدة، دون أن تصدّقا أبداً خُنوعنـا واسـتكانتنا، وتمـسّكنا بأغـصان الأشـجار بقوة، وبأننّا قد استغنينا عنه هـذه المـرة، دون مقابـل، بـسهولة، وإلى الأبد..

تراهُ سوف يسامحنا، ويعذر خوفنا الشديد من الموت، وحبّنـا المفرط للحياة؟

تراه سيفعل؟!

* * *

بسرعة ورقّة، سـحب الوحـل البنـي الأملـس الغـامق كـل شيء، دون صـخب أو ضـجيج، الأرض وقتهـا فتحـت فاهـا، وبدأت الأشياء تنزلـق إلى جوفهـا بليونـةٍ وسلاسـة.. انزلقـت بعض الأشـجار والجـذوع البعيـدة عنّـا، وغابـت في أحـشائها العميقة، أزداد خوفنا، لكنَّها لم تبتلعنا حينها، رُبّـما عرفـت أننـا

كنّا صغاراً بالنسبة لها، وسنبقى.. أو أنها لم تكن في ذاك الزمن البعيد مهتّمة بأمرنا، كانت مطمئنة لوجودنا فوقها، تُحسّ بنا، وتدرك بأننا لا نزال نعيش بسلام، لم ترغب تلك الأم العظيمة أن تأكل صغارها، رغم جوعها.

والحصان..

ذاك المخلوق الأبيض الجميل، عجز حينها، ولم يقدر أن يتخلّص من الوحل ويركض.. وفي دقائق قليلة ابتلعته أمنّا الأرض مع كتبي التاريخية التي كانت في خُرجه مع بعض الزيتون والزعتر، والخبز الناشف.

* * *

يومها كنتُ طالباً في الجامعة، سنة أولى تاريخ..

وكان من عادتي المحبّبة اصطحاب كتبي معي إلى الحقل، أقرأ فيها أثناء الاستراحة داخل الخيمة، وأثناء عودتنا إلى

البلدة، حيث كان ظهر الحصان مكاني المفضّل للقراءة، وليست أية قراءة..

أذكر أن جدّتي قد زرعت في وجداني منذ طفولتي، حبَّ العِلم والتّعلّم، وكانت تقول: إن العِلم للفقير أجنحة وسلاح، ومن دونه لن يستطيع مواجهة الحياة والطيران..

- إلى أين هربتم؟

جاءني صوتها كأنّه رعد دون مطر، أو ضوءُ قنبلة أشعلت العتمة دون صوت.

- صعدت مع أخي الصغير شجرة زيتون.

- وأختك وأبوك؟

- كانا قد سبقانا إلى أعلى الأشجار.

دمعتان صغيرتان تجمّعتا داخل النجمتين الساحرتين في وجهها، نظرت إلي من خلالهما كثيراً، نظرات عاتبة، وكنتُ متأكّداً في لحظتها بأنها لم تعد تراني.

وربما لن ترغب بعد ذلك أبداً برؤيتي !.

ومنذ ذاك الوقت تلاشت علاقتنا، وغرقت في المجهول، واختفت، مثلما اختفى حصاننا الأبيض الجميل مع كتبي العزيزة.

* * *

حتى اليوم..

مازالتْ ذكرى غرق الحصان مع كتبي عالقة بين عيني، أراه كلّما أرعدِت السماء وأمطرت، محّولةً ساحات بلدتي القديمة إلى بركٍ من الطين، وألمح جسد الحصان الأبيض في كل بركة وحل وهو يتخبّط ويغرق..

تراه هو الذي غرق في ذلك الصيف الساخن أم نحن؟

تراه هو الذي دفع الثمن بغرقه لمرة واحدة، أم أصحابه الذين لا يزالون يغرقون في الوحل منذ ذاك الصيف، حتى اليوم، مرّةً تلو المرّة؟!

* * *

زمن بعيد مرّ على ما حدث..

أتذكّر ذلك باستمرار.. وبوضوح تام.. وببساطة كبساطة الماء وهو ينساب متدفّقاً بين الصخور.. ستبقى ذاكرتي ملتهبة بغرق الحصان والكتب، متوّهجة بالوجع كالنجوم، حتى تنطفئ أحلامي وتنتهي حياتي.

منذ ذاك اليوم حملتُ مسؤولية غرق الأحياء والأشياء، صرتُ مهتمّاً أكثر بمن حولي، خائفاً بجدّ من الآتي..

كان مع مَن غرق شيء في غاية الأهمية..

شيء يشبه إلى حدّ مروّع سمعة الإنسان وشرفه، وحين تذهب السمعة، ويغادرنا الشرف، فإن كنوز الأرض كلّها لن تعوّضهما أبداً.

مخطوط قديم كان بين كتبي في ذاك اليوم، مخطوط سميك، وذو غلاف بنّي بلون الوحل، كان يحتوي

على كلام خطير وهامّ، يتعلّق بمصير الهضبة ومَن عليها.

رسومات لوجوه أجدادنا، الذين سكنوا تلك الديار منذ مئات السنين، خرائط ومفاتيح مرسومة بدّقه متناهية، وبيوت طينية وحجرية تناثرت فوق هضبتنا العزيزة، وتواريخ تؤكّد أن عُمر الهضبة من عمر البازلت وشجر الزيتون، وحين وُجدِتْ وُجِد أجدادي عليها، وإذا كان هنالك، أيّ رحيل لليابسة، فلن يكون إلاّ برحيلنا معاً عن هذا لعالم..

لكن الأرض لا ترحل.. ولن ترحل..

سُكّانها الأصليون هم الذين يرحلون، لا عنها، بل إليها، فتضمّهم إلى صدرها كأمّ عطوف، عاد إليها أولادها بعد غياب طويل، تضمّهم إليها دون أن تضيق بهم، أو تضجر منهم.

كيف ضاع مني ذلك وغرق؟!

لن أسامح نفسي إذا لم نستطع استخراجه من الطين.

* * *

حين رجعنا في ذلك النهار، دون الحصان، أوّل شيء راح أبي يبحث عنه هو المخطوط..

في البداية لم أفطن أو أهتم..

إنما احتراق أعصاب والدي، ورغبته المشتعلة في إيجاده، جعلني حائراً، قلقاً كطائر وقع في قفص.

ثم تذكّرتُ..

كان بين كتبي في ذاك اليوم..

قرأتُ فيه بعض الفصول في الليل فأعجبني..

طلبتُ من والدي أن آخذه معي إلى الحقل، لأتابع قراءته، وافق على مضض، وقال:

- هذا المخطوط كولدٍ خامس من أولادي، إنه أخوكَ، انتبه له جيداً.

وعندما أخبرته أن ابنه الخامس قد بقي مع كتبي في خُرج الحصان، فرفص إلى جانبي وبكى..

في اليوم الثاني عُدنا..

كانت أرض هضبتنا لا تزال طريّة، رخوة، رطبة كغيمة مثقلة برذاذ المطر.

اقترح ابن عمي أن نعود بعد أيام ريثما تجفّ التربة، لأن المياه لا تزال تغطي المنطقة بكاملها رغم سخونة تلك الأيام وشمسها الحارقة.

طوال عدّة أيام، بقي والدي يعود في النهار مرتين أو ثلاثاً، يتلمّس الأرض بيديه الخشنتين، وكأنه يطمئنّ على حصاننا ويُطمئنه بأننا قادمون لإخراجه مع الكتب إلى النور.

في اليوم الخامس، جمع أبي حوالي عشرة رجال من أبناء عمومتي مع معاولهم، وقرّر سحب جثة الحصان.

كان متأكّداً من أن المخطوط لا يزال بخير..

كان مؤمناً بذلك، ولعل الوصية تلك، أو الولد الخامس، كما كان يحلو لوالدي أن يطلق على المخطوط لا يزال حيّاً يُقرأ.

والدي فرح جداًحين عرف أنني في ذاك النهار قمُت بُلفّ جميع الكتب في كيس نايلون سميك، ثم وضعتها في خُرج الحصان دون أن أدرك معنىً لتصرّفي العفوي هذا، وربّما هذا التصرف سينقذني من عذاب الضمير، وينقذ سمعة أهلي من العار.

عرفنا المنطقة، لكننا عجزنا عن تذكّر المكان الذي غرق فيه الحصان بالضبط.

وقد أصبحت الأرض حينها صلبة، شوتها الشمس وجعلتها قاسية كقشرة سلحفاة.

وزّع والدي علينا الأدوار.. كُلٌّ في مكان..

ثم شرعت معاولنا تحفر، ويعلو صوتها..

أو شكت الشمس على المغيب، أو الانتحار خجلاً مما حدث، خلف الهضبة، وأخذت ظلال أجسادنا ومعاولنا تمتدّ وتكبر أمامنا..

رجعنا في الليل كطيور فقدت أجنحتها، لكنها لم تفقد الأمل بعودة نمو ريشها مرة أخرى.

وفي اليوم التالي عدنا.. وكان اليوم السادس لغرق حصاننا..

باكراً أيقظني والدي...

وباكراً جدّاً وقع ما لم نحسب لوقوعه حساباً..

في صباح ذاك الصيف البعيد، هجم الجراد على هضبتنا..

جاء فجأة من كل مكان إلى مكان محدّدٍ بالذات.

كان جائعاً جداً، وجوعه لم يكن يشبه جوعنا..

كان جوعَ الافتراس لا المعدة، وجوع الأنياب الحاقدة لابتلاع كل شيء، والتهام اليابس قبل الأخضر، وقضم أي شيء يصادفه، حتى التراب والأحجار.

جاء ولم يرحل بعد

وبقـي الحـصان مـدفوناً هنـاك كلغـم، وكـسيف أُغمـد في الأرض، ينتظر أيدي شجاعة نبيلة تُحـرّره مـن الوحـل ووجـع الانتظار، وتخرجه إلى ضوءٍ يُزيل عن شفرته صدأ الأيام..

* * *

n

الصفحة

صدر للمؤلف

١ - أعود بعد الموت - قصص ١٩٩٦.
٢ - اعترافات متسكّع دمشقي - قصص - دار كنعان ١٩٩٩
٣ - حُب وعصافير – قصص - اتحاد الكتاب العرب ٢٠٠١
٤ - الذئب الراكض في المدينة - قصص - وزارة الثقافة ٢٠٠٢
٥ - غابة البلّوط - قصص - وزارة الثقافة ٢٠٠٤
٦ - ليل المدينة - قصص - اتحاد الكتاب العرب ٢٠٠٦
٧ - العناكب - قصص - اتحاد الكتاب العرب ٢٠٠٩

الطبعة الأولى / ٢٠١٢م
عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

الرماد...

وقصص أخرى



الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة

www.syrbook.gov.sy

مطابع وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٢م

سعر النسخة ٨٠ ل.س أو ما يعادلها